



سلسلة الروح الجامعية (س ١ ع ٢)

صَفْوة
الحَيَاءُ الغَزَلُ المِثْمُ

(وهو بحث في الثقافة الرومية في كتاب اميلاء علوم الدين)

بقلم محمود علي مزراحي

المحامي

.....
١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م

الاشهاد

الى أستاذنا العزيز احمد امين

استاذ الادب العربي بكلية الآداب

ومؤلف (فجر الاسلام) و (ضحى الاسلام)



الى علمك العزيز وقلبك الكبير
وفنك الجميل وروحك النباض
الطاهرة الزكية وتصلك الملائكة
أهدي كتابا تحدث عن الروح
وصلاحتها، والخلق المجيدة ونزاهتها
ومعالي الجمال وطرب الروح بها..
هدية قلب لقلب وروح لروح..

محمود علي قراعه

في ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٤

المقامي بمشقة البكري - مصر الجديدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحية وبعد : فقد صادفنا ذا المال وذا الجلال وذا المنصب
وذا العلم وذا الجاه ، فلم نجد لذة أكبر من مصادقة الكتب ،
ولاً وفاء أصدق من صحبتها ، تقبل حيث نهجر ، وتصفح
حيث نهفو ، وتصل حيث تقاطع ، وتلد حيث يتبرم بالحياة
وشروها ، وتفي حيث يحزن الصحب ، وتحنو حيث يقسو
الخليل ، وتعطف حيث يتبرم الصديق ، ففى فى سرائنا
وضرائنا ، ملازمة لنا ، مقيمة على ودنا ، حافظة لعهدنا .

ومن هذه الكتب التى كنت أصحبها كلما أصابتنى
مصيبة روحية أو مادية ، ولا زلت أهفو اليها كلما دعتنى
ذكرى ودادها « كتاب احياء علوم الدين للغزالي » فكنت ألقى
فى قراءته لذة وفى صحبتته عزاء ، فأطلت صحبتى معه وفيت
فيه ، وأنا إذا كتبت عن ثقافته الروحية انما احدث عن
هذه اللذة وأقوم بواجب وفاء هذه الصحبة ، وكللى أمل
أن اجيد الحديث عن لذته وأن أوفق للقيام بوفاء صحبته ،
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته محمد على فراع

العلم

١ - يرى الغزالي « أن غذاء القلب العلم والحكمة وبها حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض ، وموته لازم ولكنه لا يشعر به إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل احساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعا ، فإذا حط الموت عنه اعباء الدنيا ، أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيماً بما لا ينفعه وذلك كاحساس الآمن من خوفه والمفتيق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف » أي أن القلب الخالي من العلم مريض ولكن صاحبه لا يشعر بهذا المرض لما شغل به من أمور الدنيا ، فإذا كشف الغطاء بأن خرج من الدنيا شعر بألم مرض الجهل ، لأن « الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا » .

٢ - ويأتي الغزالي للتدليل على فضل العلم بشواهد عقلية خلاصتها : (١) أن الفضيلة مأخوذة من

الفضل وهي الزيادة ، فاذا تشارك شيان في امر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال الشيء ، فالعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير اضافة ، فانه وصف كمال الله سبحانه وتعالى ، وبه شرف الملائكة والانبيااء إذ قال « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » (ب) الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم الى : ما يطلب لغيره (كالدرهم والدنانير) ، والى ما يطلب لذاته (كالسعادة في الآخرة ولذة النظر الى وجه الله تعالى) ، والى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً (كسلامة البدن ، ففي سلامته بعد للألم وتحقيق للتوصل الى المآرب) — وما يطلب لذاته أشرف وافضل مما يطلب لغيره ، والعلم لذيد في نفسه لأنه ذريعة الى معرفة الله وأصل السعادة في الدنيا والآخرة ، فهو مطلوب لذاته (ج) تعلم العلم طلب للأفضل ، وتعليمه إفادة للأفضل (د) المعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على

الارض من جنس الانس ، وأشرف جزء من جواهر
الانسان قلبه ، والعلم يشتغل بتكيله وتجليته وتطهيره
وسياقته الى القرب من الله عز وجل

٣ - ويقسم الغزالي العلم الى علم معاملة وعلم مكاشفة،
ويقول ان المعاملة التي تكلف العبد العاقل البالغ العمل بها
ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك : فأول واجب عليه تعلم كلتي
الشهادة وفهم معناها وهو قول (لا إله إلا الله ، محمد رسول
الله) ، ولا يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر
والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه ان يصدق به ويمتدده
جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد
يحصل بمجرد التقليد والسماع من خير بحث ولا برهان ،
فمن صدق وأقر فقد أدى واجب الوقت . اما الفعل فبتجدد
وجوب الصلاة عليه اذا دخل عليه وقتها ، ووجوب تعلم
الصوم اذا دخل عليه رمضان ، فان تجدد له مال عند بلوغه
لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، فاذا دخل في أشهر الحج
فلا يلزمه المبادرة الى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا

٧

يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغي لعلهم الاسلام أن
ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك
الزاد والراحلة ، فاذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج .

وأما الترك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من
الحال وذلك يختلف بحال الشخص اذ لا يجب على الأبكم
تعلم ما يحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم
من النظر .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب ، فيجب عملها بحسب
الخواطر ، فان خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا
الشهادة ، فيجب عليه تعلم ما يتوصل به الى ازالة الشك ،
وينبغي أن يبادر في أن يلتقى اليه الايمان بالجنة والنار والحشر
حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تنمة كلمتي الشهادة .

٤ - ويرى الغزالي أن العلوم بالاضافة الى الفرض
الذي نحن بصدد تنقسم الى شرعية وغير شرعية ، وان
الشرعية ما استفيد من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ،
ولا يرشد العقل اليه (مثل الحساب) ولا التجربة (مثل

٨

(بطب) ولا السماع (مثل اللغة) . وقال ان العلوم التي ليست
الشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ماهو مذموم والى ماهو
مباح . فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا ، وذلك ينقسم
الى ماهو فرض كفاية والى ماهو فضيلة وليس بفريضة ،
أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور
الدنيا (كالطب اذ هو ضرورى في حاجة بقاء الأبدان ،
والحساب فانه ضرورى في المعاملات وقسمة الوصايا
والموارث وغيرها ، وكذلك أصول الصناعات كالزراعة
والحياكة والسياسة من فروض الكفايات) لو خلا البلد
عمن يقوم بها خرج أهل البلد ، واذا قام بها واحد كفى
وسقط الفرض عن الآخرين . وأما ما يعد فضيلة لا فريضة
فكالتمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما
يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج اليه .
وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات . وأما المباح منه
فالعلم بالاشعار التي لا تخف فيها وتوارى الاخبار وما
يجرى مجراه .

أما العلوم الشرعية فهي محمودة كلها، ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة، فتقسم الى الحمودة والمذمومة، أما الحمودة فأصولها أربعة: كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة رضی الله عنهم. وفروعها ما فهم من هذه الاصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فالتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره (كما فهم من قوله عليه السلام: « لا يقضى القاضى وهو غضبان » أنه لا يقضى إذا كان حائقاً أو جائعاً أو متألماً بمرض)، وهذا على ضربين أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه الحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه. ومقدمات الأصول هي التي تجرى منها مجرى الآلات كتعلم اللغة والنحو وكعلم كتابة الخط. وأما متممات الاصول فذلك في علم القرآن وينقسم الى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف، والى ما

يتعلق بالغنى كالتفسير ، والى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة
الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر وكيفية
استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذى يسمى أصول
الفقه ويتناول السنة أيضاً .

وعلم طريق الآخرة قسمان : علم مكشفة وعلم معاملة :
فعلم المكشفة (علم الباطن) وهو عبارة عن نور يظهر فى
القلب عند تطهيره وتركيبته من صفاته المذمومة ، وينكشف
من ذلك النور أمور كثيرة كأن يسمع من قبل اسماءها
فيتوهم لها معانى بمجلة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى
تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وتعالى وبصفاته
الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة .
فالغزالى يعنى بعلم طريق الآخرة « كيفية تصقيل
مرآة القلب عن الخبائث التى هى حجاب عن الله تعالى وعن
معرفة صفاته وأفعاله ، وأما تصفيتها وتطهيرها بالكف
عن الشهوات والافتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم فى جميع
أحوالهم » ويقول أن هذا هو العلم الخفى الذى أراده

صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المسكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فاذا نطقوا به لم يجبهه إلا أهل الاغترار بالله تعالى » .

أما علم المعاملة فهو علم أحوال القلب ما يحمد منها وما يذم ، وتقوية الاحوال المحمودة بمعرفة حقائقها وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجة ما ضعف منها .

وأما الفلسفة فليست علما بذاتها بل هي أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب وهما مباحان ولا يمنع عنهما الا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما الى علوم مذمومة و(ثانيها) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلا في علم الكلام و(ثالثها) الالهيات وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وهو داخل في علم الكلام أيضا . والفلسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة

و(رابعها) الطبيعيات

وبعضها مخالف للشرع والدين الحق فهو جهل وليس بعلم ،
وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية
استحالتها وتغيرها .

٥ - ويأتى لنا الغزالي ببيان علة ذم العلم المذموم

ويورد قول عيسى عليه السلام « ما أكل كثير الشجر وليس
كلها بمنعم ، وما أكل كثير الثمر وليس كلها بطيب ، وما أكل كثير
العلوم وليس كلها بنافع » . ويقول ان العلم لا يذم لعينه وانما
يذم في حق العباد ولا أحد أسباب ثلاثة : (الاول) أن يكون
مؤدياً الى ضرر اما لصاحبه أو لغيره (كما يذم علم السحر
والطلسمات) . (الثاني) أن يكون

مضراً لصاحبه في غالب الأمر (كعلم النجوم اذ هو قسمان :
قسم حسابي نطق القرآن به فدل على أن مسير الشمس والقمر
محسوب اذ قال عز وجل « الشمس والقمر بحسبان » .
« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .
وقسم يرجع الى الاستدلال على الحوادث بالأسباب ، وهذا

قد زجر عنه الشرع من ثلاثة أوجه (١) أنه مضر بأكثر الخلق اذ يبقى القلب ملتفتا الى السكواكب ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها ، ويفغل عن أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالى

(٢) أن أحكام النجوم

(أن بعض الآثار تحدث عقيب سيرها) تخمين محض لا يدرك في حق آحاد الاشخاص لا يقينا ولا ظنا ، فالحكم به حكم بجعل لا يعلم (٣) أنه لافائدة فيه

(الثالث) الخوض في

علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم في حقه (كتعلم دقيق العلوم قبل جليها وخفيها قبل جليها وكالبحث عن الاسرار الالهية اذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون اليها ولم يستقل بها بالوقوف على طرق بعضها الا الانبياء والاولياء ٦ — ويحدثنا الغزالي عن بيان القدر المحمود من

العلوم المحموده فيقول أنها بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام :

(١) قسم مذموم منه قليله

وكثيره وهو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا إذ فيه ضرر
يغلب نفعه (كعلم السحر) (ب) قسم محمود إلى أقصى غايات
الاستقصاء ، وهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته
في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا

(ح) قسم لا يحمد منه إلا
مقدار مخصوص وهو قسم العلوم التي أوردناها في فروض
الكفايات ، فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل ،
واقتصاداً وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد ولا
مرد له إلى آخر العمر . ويقول « يجب مراعاة التدرج في
فروض الكفايات ، فلا يستغرق صمرك في فن واحد منها
طلباً للاستقصاء ، فإن العلم كثير والعمر قصير ، وهذه
العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ،
وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب
وتستكثر منه .

✓ — فالغزالي يرى أن تتعلم العلم وأن يأخذ كل
منا منه بالقدر الذي ينفعه في دينه ودنياه وأن يبتعد عن

العلوم التي لاخير فيها لأنها مضيعة للوقت أولانها مرعزة
 لليقين عابثة بإيمان القلوب ، وأن يقدر كل منا نفسه في العالم
 وحده مع الله وبين يديه الموت والعرض والحساب والجنة
 والنار ، ويتأمل فيما يعنيه مما بين يديه ويترك ما سواه .
 والغزالي لهذا يرى العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة
 للباطن الى الله تعالى ، ويقول « ان نور البصيرة يلاحظ المعاني
 لا الصورة » فيجب على المتعلم تقديم طهارة النفس عن
 رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف لان « الصور في هذا
 العالم غالبية على المعاني والمعاني باطنة فيها ، وفي الآخرة
 تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني ، فلذلك يحشر كل شخص
 على صورته المعنوية » ، ولكي تكون هذه الصورة المعنوية
 بالغة مبلغها من الكمال يرى أن يعرف المتعلم السبب الذي
 به يدرك أشرف العلوم ويعلم نسبة المعلوم الى المقصد كما
 يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره و « القلب
 تلك اللطيفة الربانية هي الساعية الى قرب الرب لانها من امر
 الرب فمنه مصدرها واليه مرجعها ، وأما البدن فطيتها التي

تركبها وتسمى بواسطتها فيجب المحافظة على علم سلامة
 البدن ومساعدة أسباب الصحة بالاجتماع والتظاهر والتعاون
 ليصل الى علم القلب براحة المطية وتهيئة الاسباب لها ،
 وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله
 بالفضيلة ، وفي المآل القرب من الله سبحانه وتعالى والترقى
 الى جوار الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به
 الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ، وأن يقلل المتعلم
 علائقه من الاشتغال بالدنيا لانه «مهما توزعت الفكرة ،
 قصرت عن درك الحقائق» ، وأن لا يتكبر على العالم ولا
 يتأمر على المعلم ، وان يكون ذا قلب حاضر بأن يقبل العلم
 فهما مصغياً فرحاً ، وان يحترز في مبدأ الامر عن الاصغاء
 إلى اختلاف الناس سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا
 أو من علوم الآخرة « فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه
 ويفتر رأيه ويؤيسه عن الادراك والاطلاع » . بل ينبغي
 ان يتقن اولاً مذهب أستاذه ثم يصغي بعد ذلك للمذاهب
 والشبه . ويجب أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم

المحمودة ولا نوما من أنواعه الا ونظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وفائته ، فان ساعده العمر طلب التبجر فيه والا اشتغل بالأمم منه واستوفاه . ويجب أن لا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق الى بعض .

▲ - ويرى الغزالي أن وظائف المرشد المعلم الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه . ويقول « كما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد ، التحاب والتوادر ، ولا يكون إلا كذلك ان كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون الا التنافر والتباغض ان كان مقصدهم الدنيا » . فواجب المعلم اعتبار المتعلمين أبناءه واخوته واخوانه ، واجبه أن أن يحبهم ويرشدهم وأن يفهم أن الصلة بينه وبينهم صلة روحية قبل أن تكون مادية ، وهو بهذا الحب الروحى يجب أن لا « يطلب على افادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبها للتقرب اليه ، ولا يرى لنفسه

منة عليهم - وان كانت النة لازمة عليهم - بل يرى الفضل لهم
اذ هذبوا قلوبهم . وهذا الذى يراه الغزالى هو الاصل فى
الصلة بين المعلم والمتعلم ، ولكن لان النفوس البشرية ضعيفة
لا يجد أكثرها ما يحمل على خدمة العلم للعلم ، كان للمعلمين
- لاسما للعلوم الدنيوية - أجر ، الاصل فيه أن يبنى
بحاجاتهم وأن يظهروا به امام الناس بالمظهر اللائق بهم وأن
يستغفروا عن الناس من الوجبة المادية فيحفظوا بذلك كرامتهم
وكرامة العلم . ولكن اذا نظرنا للصلة بين المعلم والمتعلم فى
دور التعليم المصرية ، لوجدناها صلة مادية تدعوا للآلم وتبعث
على التحسر ، فى ابتدائى وثانوى - سواء فى المعاهد الدينية
أو فى مدارس وزارة المعارف - تجد غالب الصلة بين التلميذ
وأستاذه صلة تنافر وتباغض ، التلميذ يخاف من استاذ
ويخشاه ولكن لا يحبه ، والاستاذ لا يعطف على تلميذه
وإن عطف عليه فلحاجة فى نفس يعقوب (أقربها الى
الاذهان أن يكون هذا ابن صديق أو قريب أو عظيم أو
أنه مدرسه الشخصى فى المنزل يتقاضى منه اجرا زيادة عن

أجره) ، ومن دواعى الأسف ان تكون هذه المادية الحقيرة هى عين الصلة بين الاستاذ وتلميذه فى المدارس العليا — حتى فى كليات الأزهر وكليات الجامعة المصرية — يحترم الطالب استاذة لانهما سيلتقيان فى الامتحان الشفهى فهو يتقرب اليه بما قد يصل الى حد التزلف والتلقى المزرى لوم انه سينفعه بدرجة أو درجتين أو درجات او على الاقل بتسهيل الاسئلة عليه ، وهو لهذا الوم يشرب مرارة جهل استاذة ولا يستطيع ان يناقشه بخوف أن يحمل استاذة حب المناقشة لرغبة فى التعجيز ، ولا يجراً على ان يخطئه فى نظرية علمية أو أن ينقد اسلوب القاء او يبدي جهلاً فاضحاً ظاهراً من استاذة أو يتحدث عن ضعف ظاهر بين منه ، خوف يوم لقاء الامتحان الذى يتوعد به الاساتذة الطلبة أو يتوهم الطلبة أنه يوم الوعيد . وكان الاخرى أن تكون هناك صلة قلبية بين الاستاذ وتلميذه ، صلة حب خالية من الاغراض ، يعلم الاستاذ أنه امين فلا يدع كما يقول الغزالى من نصح المتعلم شيئاً » وذلك بأن يمنعه من التصدى لرغبة

قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ،
ثم ينهبه على ان الغرض بطلب العلوم هو القرب من الله
تعالى « وكل العلوم هذا هو غرضها سواء كان مباشرا أو
غير مباشر ، حتى العلوم الدنيوية التي يريد بها متعلمها كسب
العيش هي علوم يراد بها ان تهيئه لعمل معين او حرفة معينة
او وظيفة معينة يستغنى بها عن سؤال اللئيم ويتم بأجرها
أوده ويصرفه على حاجياته المادية فيخلص تفكيره من
الامور المادية وبذا يعنى بالروحانية ، وكلما قويت عنايته بها
كلما قرب من الله تعالى . يجب أن يعلم الاستاذ انه أمين
فيجب كما يقول الغزالي « أن يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق
بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة
لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة
ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف وبهيج الحرص على
الاصرار ، ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة
والاذهان الذكية الى استنباط معانيه ، فيفيد فرح التفتن
لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته »

ومن دواعى هذه الامانة « أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ان لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه . بل المتكلف بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وان كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة » و « ان يقتصر المتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله » و « ان ياتى الى المتعلم القاصر ، الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه » .

هذه هي أمانة الاستاذ العلمية ، اما أمانته الخلقية فهي حبه لتلميذه حب مجرد عن الغرض المادى، مقصود به إفادته العلمية ، لانه بهذا الحب يحبه ، لان بالعطف يعطف الانسان او يحمل على العطف ، ويكون سبب الحب هنا هو تلك الصلة الروحية التي تربط بين اثنين يسهيان لغرض واحد شريف هو الوصول الى الحقيقة والبحث عنها أنى وجدت . ويرى الغزالي فوق هذا الحب لفائدة العالم « ان لا يطلب العالم الدنيا بعلمه بل يطلب الآخرة ويؤثرها ،

وأن يكون غير مائل الى الترفه في المطعم والشرب والتنعم
في الملبس والتجمل في الاثاث والسكن بل يؤثر الاقتصاد
في جميع ذلك » و « ان يكون مستقصيا عن السلاطين
فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد الى الفرار عنهم سبيلا ،
بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وان جاءوا اليه » و « أن
لا يكون مسارما الى الفتيا بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد
الى الخلاص سبيلا ، فان سئل عما يعلمه تحقيقا (بنص كتاب
الله أو بنص حديث أو اجماع أو قياس جلي في العلوم الدينية)
أفتى ، وان سئل عما يشك فيه قال لا أدري ، وان سئل عما
يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على
غيره ان كان في غيره غنية » .

٩ - والغزالي كما رأينا يدعو تلامذة العلم الواحد
الى التحاب والتواد والتعاون ، ومحدثنا كمثل لما يراه في
التعاون العلمى عن المناظرة ، فيقول : ان الغرض من المناظرة ،
المباحنة عن الحق ليتضح « فان الحق مطلوب ، والتعاون
على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر . والتعاون

على طلب الحق من الدين . ويرى أن لا يستغل بطلب الحق عن طريق المناظرة (وهو من فروض الكفايات) من لم يتفرغ من فروض الاعيان ، وأن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة (فان رأى ما هو أهم وفعل غيره ، عصي بفعله) وأن يكون المناظر مجتهدا يفتى برأيه ، وأن لا يناظر الا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالبا ، وأن تكون المناظرة في الخلوة أحب اليه وأهم من المحافل « فان الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرته كل واحد نفسه محقا كان أو مبطلا » ، وأن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين ان تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره اذا عرفه بالخطأ وأظهر له الحق ، وأن لا يمنع معينه فى النظر من الانتقال من دليل الى دليل ومن أشكال الى أشكال ، ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله هذا لا يلزمى ذكره وهذا يتناقض كلامك

الاول فلا يقبل منك (فان الرجوع الى الحق مناقض للباطل
ويجب قبوله) . ولذلك يشترط الغزالي في المناظرة أن يناظر
الناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم ،
ويقول أن المناظرة الموضوعة لتقصد الغلبة والافحام واظهار
الفضل والشرف والتشديد عند الناس والمباراة واستمالة
وجوه الناس ، هي منبع جميع الاخلاق المذمومة عند الله ،
المحمودة عند عدو الله ابليس ، ونسبتها الى الفواحش الباطنة
من الكبر والعجب والحسد وتزكية النفس وحب الجاه
وغيرها كنسبة شرب الخمر الى الفواحش الظاهرة من الزنا
والقذف والقتل والسرقة .

١٠ - ويرى الغزالي ان يكون أكثر اهتمام

المعلم بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة
وسلوكه ، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة
والمراقبة « فان المجاهدة تقضى الى المشاهدة ، ودقائق علوم
القلوب تنفجر منها ينايع الحكمة من القلب ، وأما الكتب
والتعليم فلا تنى بذلك » .

١١ - ويرى الفزالي أنه يجب أن يكون المعلم شديد العناية بتقوية اليقين ، فان اليقين هو رأس مال الدين . ويقول أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان معنيين مختلفين : أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك ، أذميل النفس الى التصديق بالشئ ، له أربع مقامات : (١) الشك وهو أن يعتدل التصديق والتكذيب (٢) الظن وهو أن تميل نفسك الى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان تقيضه ، ولكنه امكان لا يمنع ترجيح الاول لتجوز اختفاء أمر مساو لتلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه (٣) اعتقاد مقارب لليقين ، وهو أن تميل النفس الى التصديق بشئ حيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ، ولكن ليس ذلك عن معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والاصغاء الى التشكيك والتجوز ، اتسعت نفسه للتجوز (ومثل هذا الاعتقاد اعتقاد العوام في الشرعيات كلها اذا رسخ في نفوسهم بمجرد السماع) (٤) اليقين

وهو المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه ، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر أو بحس أو بغريزة العقل أو بتواتر أو بتجربة أو بدليل ، ويرى الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء أنه لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك ، بل إلى استيلائه وغلبته على العقل ، فهما مالت النفس إلى التصديق بشيء ، وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والنوع ، سمي ذلك يقيناً

فعلى اصطلاح المتكلمين لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت فى نفي الشك ، وكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عندهم ، وعلى اصطلاح الفقهاء والمتصوفة يوصف اليقين بالضعف والقوة ، ويرى الغزالي أن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعاً ، وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها . ويقول أن درجات اليقين فى

القوة والضعف لا تتناهى ، وتفاوت الخلق والاستعداد
للموت تفاوت اليقين بهذه المعانى ، أما التفاوت بالخفاء والجلال
فلا ينكر أيضا ، وكذا فيما يتطرق اليه التجويز وفيما انتفى
الشك عنه ، فانك تدرك التفرقة بين تصديقك بوجود
أمرين لا تشك فيهما إذ مستندهما جميعاً التواتر ، ولكن
ترى الاول أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى ، لان السبب
فى أحدهما أقوى وهو كثرة الخبرين مثلاً . وكذلك ليس
وضوح ملاح بدليل كوضوح ملاح بالأدلة الكثيرة مع
تساويهما فى نفي الشك . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة
متعلقات اليقين كما يقال فلان أكثر علماً من فلان أى
معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع
ما ورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه .

١٢ - ويرى الغزالى أن العقل منبع العلم ومطلعه
وأساسه ، وقد سماه الله نورا فى قوله تعالى « الله نور السموات
والأرض ، مثل نوره كمشكاة » وسمى العلم المستفاد منه
روحا ووحيا وحياة فقال تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحا

٢٨

من أمرنا « وقال سبحانه « أو من كان ميتاً فأحييناه
وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس » ، وحيث ذكر النور
والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله « يخرجهم من الظلمات
الى النور » .

ويقول أن العقل اسم يطاق بالاشتراك على أربعة
معان :

(١) الوصف
الذى يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذى استعد به
لقبول العلوم النظرية وتدير الصناعات الفكرية ، فالعقل
غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم النظرية وكأنه نوري قدف في
القلب به يستعد لادراك الأشياء ، وهذا هو الاس والمنبع
(٢) هي العلوم

الضرورية التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز
الجائزات واستحالة المستحيلات (وهو أقرب الى المنبع ،
كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الشخص الواحد
لا يكون في مكانين في وقت واحد) . (٣) علوم
تستفاد من التجارب بمجاري الاحوال ، (وهذا فرع الاول

والثاني اذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد التجارب)
فان من حنكته التجارب وهذبت المذاهب يقال أنه عاقل
في العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال أنه غبي غر
جاهل . (٤) أن تنتهي

قوة تلك الغريزة الى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع
الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة ويقهرها ، فاذا حصلت هذه
القوة سمي صاحبها عاقلا من حيث أن اقدامه واحكامه
يحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة .
ويقول الغزالي ان الغريزة والعلوم الضرورية بالطبع ،
والتجارب وثمرتها الأخيرة وغايتها القصوى في معرفة
عواقب الأمور بالاكتساب ، وأن الناس يختلفون في
تفاوت العقل ، والتفاوت يتطرق الى الاقسام الأربعة
سوى القسم الثاني وهو العلم الضروري (فان من عرف أن
الاثنين أكثر من الواحد ، عرف أيضا استحالة كون
الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قديما وحادثا ، وكل
ذلك يدركه محققا من غير شك) وأما الاقسام الثلاثة فالتفاوت

٣٠.

يتطرق إليها ، أما القسم الرابع فلا يخفى تفاوت الناس فيه ، بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذه التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة (إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض) ولكن غير مقصور عليه (فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا ، وإذا كبر وتم عقله قدر عليه ، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالعكس لا ضعفا) ، وقد تكون نسبة التفاوت في العلم المعروف لغائلة تلك الشهوة (ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة ، وقد لا يقدر من يساويه في العقل على ذلك إذا لم يكن طبيباً وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ، ولكن إذا كان غلام الطبيب أتم ، كان خوفه أشد) ، فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل ، وإن كان من جهة العلم فهو عقل لأنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه ، وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل (فأنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد) . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب ،

٣١

تفاوت الناس فيها لا ينكر ، فانهم يتفاوتون بكثرة
الاصابة وسرعة الادراك ، ويكون سببه إما تفاوتاً في
الغريزة واما تفاوتاً في الممارسة «فالتفاوت في الغريزة لا
سبيل الى جحده ، فانه مثل نور يشرق على النفس ومبادئ
اشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً خفي
التدريج الى أن يتكامل بقرب الاربعين سنة ، وتفاوت
نور البصيرة كتفاوت نور البصر ، وانقسام الناس الى
من يتنبه من نفسه ويفهم والى من لا يفهم الا بتنبيه وتعليم
والى من لا ينفعه التعليم أيضاً ولا التنبيه كاتقسام الارض
الى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيوناً والى ما يحتاج
الى الحفر ليخرج الى القنوات والى ما لا ينفع فيه الحفر
وهو اليابس » .

ويقول الغزالي عند شرحه عجائب القلب أن العقل
مشارك لمعان مختلفة ، والمتعلق بغيرنا من جملة معانيان :
أحدهما أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو
القلب ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق

ويراد به محل الادراك أغنى المدرك .

١٣ - ويرى الغزالي أن ما اتصل بالعقيدة ينبغي أن يقدم الى الصبي في أول نشوئه ليحفظه حفظاً ، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ، فابتدأوه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق ، وذلك ما يحصل في الصبي بغير برهان ، وجميع عقائد العوام مبانيها التلقين المجرد والتقليد المحض ، وهو غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الازالة بنقيضه لو أتى اليه . ولذا يقول أنه لا بد من تقويته واثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يترزّل « فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى اليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسبائحهم وسجدهم وهياتهم في الخضوع لله عز وجل والاستكافة له ، فيكون أول التلقين كالقاء بذر في الصدر ، وتمكون هذه الاسباب كالسقي والترية له حتى

ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

أى أن الغزالى يرى وجوب تلقين الصغير والعامى العقيدة الصحيحة وتقويتها بالتقليد وتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه والاشتغال بوظائف العبادات ، ولذا يرى أن علم الكلام حرام بالنسبة لهؤلاء لأنه مثير للشبهات محرك للعقائد مزيل لها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل فى الابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الاشخاص ، فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق ، وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيتته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ، وهذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل . ولكن الغزالى مع ذلك يرى أن لعلم الكلام منفعة واحدة وهى حراسة العقيدة على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل « فان العامى ضعيف يستغفره جدل المبتدع وان كان فاسدا ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه » ،

ويرى أنه اذا وقعت الاحاطة بضرر هذا العلم ومنفعته
 فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر
 إذ لا يضعه إلا فى موضعه فى وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة،
 فيقول أن العوام المشتغين بالحرف والصناعات يجب أن
 يتركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها ممانلتقنوا الاعتقاد
 الذى ذكرناه « فان تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم
 إذ ربما ينير لهم شكاويهم لعلهم الاعتقاد ، ولا يمكن القيام
 بعد ذلك بالاصلاح » ، وأما العاى المعتقد للبدعة فينبغى أن
 يدعى الى الحق « بالتلطف لا بالتعصب ، وبالكلام اللطيف
 المقنع للنفس المؤثر فى القلب ، القريب من سياق أدلة القرآن
 والحديث ، المزوج بفن من الوعظ والتحذير ، فان ذلك
 أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين » .

ويرى ان استقصاء الجدل انما ينفع فى موضع واحد ؛
 وهو أن يفرض على اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه ، فيقابل
 ذلك الجدل بمثله فيعود الى اعتقاد الحق « وذلك فيمن ظهر
 له الانس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات

العامة ، فقد انتهى هذا الى حالة لا يشفيه منها الادواء
الجلد ، فجاز أن يلقى اليه « . وفي البلاد التي تقل فيها البدعة
ولا تختلف المذاهب يرى أنه يجب عدم التعرض للدلالة ،
مع التربص لوقوع شبهة فان وقعت ذكر بقدر الحاجة .
فالغزالي يرى اذن أن العالم بعلم الكلام ينبغي أن يخصص
بتعليم هذا العلم المتجرد للعلم والحرص عليه « لان المحترف
يمنعه الشغل عن الاستتمام وازالة الشكوك اذا عرضت «
ومن توفر فيه الذكاء والفتنة والفصاحة وفي طبعه الصلاح
والديانة والتقوى ؛ ولم تكن الشهوات غالبة عليه .

١٤ — والغزالي يريد بهذا كله أن يشير الى أن هذه
العلوم لها ظواهر وأسرار ، وبعضها جلي يبدو أولا وبعضها
خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الخيث والفكر
الصافي والسر الخالي عن كل شيء من اشغال الدنيا سوى المطلوب .
ويقول ان الاسرار الخفية التي يختص المقربون بادراكها
ولا يشاركهم الا كثرون في عملها ويمتنعون عن افشائها اليهم ،
ترجع الى خمسة أقسام : (١) أن يكون الشيء في

نفسه دقيقا نكل أ كثر الافهام عن دركه فيختص
بدركه الخواص ، وعليهم أن لايفشوه الى غير أهله ، ومن
جلته الروح وبعض صفات الله تعالى .

(٢) ماهو مفهوم في

نفسه لا يكل الفهم عنه ، ولكن ذكره يضر بأكثر
المستمعين ولا يضر بالانبياء والصديقين : فلا يبعد أن يكون
ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس
بأبصار الخفافيش ، فالكفر والزنا والمعاصي والشرور كله
بقضاء الله تعالى وارادته ومشيتته ، حق في نفسه ، وقد أضر
سماعه بقوم اذا هم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه وتقيض
الحكمة والرضا بالقبيح والظلم ، وكذلك سر القدر ، ولو
أفنى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا اذ تقصر أفهامهم عن
ادراك ما يزيل هذا الوهم عنهم . (٣) أن يكون الشيء

بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر ، ولكن
يكني عنه على سبيل الاستعارة والمزليكون وقعه في قلب
المستمع أغلب لان مصاحته في ذلك : وانما يعرف هذا السر

٣٧

على خلاف الظاهر إنما بدليل عقلي أو شرعي ، أما العقلي فإن
 يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم
 « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » ، فعلم أنها
 كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي . وأما
 المدرك بالشرع فهو أن يكون اجراؤه على الظاهر ممكنا
 ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر . (٤) أن يدرك
 الانسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن
 يصير حالا ملابساً له في تفاوت العلمان ويكون الاول كالقشر
 الظاهر والثاني كاللباب الباطن . (٥) أن يعبر بلسان
 المقال عن لسان الحال ، فالقاصر بفهم يقف على الظاهر
 ويعتقده نطقاً ، والبصير بالحقائق يدرك السرفيه : وهذا
 كقوله تعالى « ثم استوى الى السماء وهي دخان ، فقال لها
 وللارض ائتيا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » فالبصير
 يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه أنباء عن كونهما مسخرتين
 بالضرورة ومضطرتين الى التسخير .

تقسيم البحث وتمهيد

١٥ - قسم الغزالي كتابه (احياء علوم الدين) الى أربعة أجزاء : ربع العبادات ، ربع العادات ، ربع المهلكات ، وربع المنجيات ، ولنا وبمحفنا قاصر على الثقلة الروحية في هذا الكتاب سنتبع تقسيما يتلاءم مع البحث بعد تمهيد حديث الغزالي عن العلم ، ولنا سيكون البحث في ثلاثة أبواب : ما بينك وبين الله ، ما بينك وبين الناس ، ما بينك وبين نفسك ، وسيقسم كل باب الى عدة فصول وكل فصل الى عدة بنود وكل بند الى جزئيات حتى يسهل البحث وحتى نستطيع أن نأتي بخلاصة وافية للحديث عن الثقافة الروحية في هذا الكتاب الجليل .

على أنا يجب أن نلاحظ هذه الصلة القوية التي تربط بين أبواب البحث ، فالقلب قلب وصفاته هي صفاته فيما بينك وبين خالك وبينك وبين الناس وبينك وبين نفسك ، اذا طهر فطهارته مشعرة باللذة في جميع هذه الصلات مع فوارق لا تخرج عن أن تكون في السك والكيف في قوة الصلة ، كذلك قل عن الصلة

بينك وبين الله اذا أنها اذا قويت واذا كنت له نعم العبد ، فانها
علاشك معبرة عما بينك وبين الناس وبينك وبين نفسك ، لانه لن
يعمر ما بينك وبين الله الا اذا عمر ما بينك وبين الناس وما بينك
وبين نفسك . ولانك اذا أحببت الله والناس ستكون مطمئنا ذا
قلب عامر بالايمان خفاق بالحب .

١٦ — ويقول الغزالي أن القلب يطلق لمعنيين :
أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر
من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك
التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه . والمعنى الثاني
هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ،
وتعلقه بالقلب الجسماني يضاهي تعلق الاعراض بالاجسام
والاوصاف بالوصوفات . والروح أيضا يطلق فيما يتعلق
بجنس غرضا لمعنيين : أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف
القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضواري الى سائر
أجزاء البدن ويجرى في البدن ويفيض أنوار الحياة والحس
والبصر والسمع والشم منها على أعضائها . والمعنى الثاني هو

اللطيفة العالة المدركة من الانسان وهو الذى اراده الله تعالى
بقوله « قل الروح من أمر ربي » .

والنفس هو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بفرضنا
منه معنيان : أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب
والشهوة في الانسان ، واليه الإشارة بقوله عليه السلام
« أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » والمعنى الثانى هو
اللطيفة التي هي الانسان بالحقيقة وهي نفس الانسان وذاته ،
ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها
فهي النفس الطمئنة اذا سكنت تحت الأمر وزايلها
الاضطراب بسبب معارضة الشهوات ، والنفس اللوامة اذا
لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية
ومعترضة عليها ، والنفس الامارة بالسوء ان تركت الاعتراض
وأذعن وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان .

١٧ - ويقول الغزالي أن للقلب جندين جند يرى
بالابصار وهي سائر الاعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت
مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا) وجند

٤١

باطنة لا ترى بالبصائر وتحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث
 (قد يعبر عنه بالارادة) ومستحث اما الى جلب النافع
 الموافق (كالشهوة) وإما الى دفع الضار المنافي (كالغضب)
 والثاني القدرة وهو المحرك للأعضاء الى تحصيل هذه المقاصد؛
 والثالث (الادراك والعلم) وهو المدرك المتعرف للأشياء
 كالحواسيس، وهو قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس.
 ويقول الغزالي : أن مع كل واحد من هذه الجنود الباطنة
 جنود ظاهرة (وهي الاعضاء المركبة من الشحم واللحم
 والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود) ،
 وهذا الصنف الثالث ينقسم الى ما قد أسكن المنازل الظاهرة
 وهي الحواس الخمس ، وإلى ما أسكن منازل باطنة وهي
 تجاويف الدماغ وهي أيضا خمسة ، حس مشترك وتخيل
 وتفكير وتذكر وحفظ

١٨ - ويضرب لنا الغزالي أمثلة القلب مع جنوده
 الباطنة فيقول : أن جندي الغضب والشهوة قد يتقادان
 للقلب انقياداً تاماً ، فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه ،
 وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى ومرد حتى يملكاه

٤٢

ويستعبده وفيه هلاكه ، وللقب جند آخر وهو العلم
والحكمة والتفكر وحقه أن يستعين بهذا الجند ، فان ترك
يلاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة ، هلك
اقيناً وخسر خسراناً مبيناً ، وذلك حالة أكثر الخلق .

ويقول الغزالي أن الانسان اصطعب في خلقته وتركيبه
أربع شوائب ، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الاوصاف
مجموعة في القلب (وهي السبعية والبهيمية والشيطنانية
والربانية) .

ومحل العلم هو القلب ، ويعنى الغزالي به اللطيفة المدبرة
لجميع الجوارح المطاعة المخلومة من جميع الأعضاء ،
ويرى أنه بالاضافة الى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة الى
صور المتلونات ، فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة
ينطبع في المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة
ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتوضح فيها .

١٩ — فالعالم عند الغزالي عبارة عن القلب الذي
فيه مثال حقائق الاشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الاشياء

٤٣

والعلم عبارة عن حصول المثال في المرأة ، والقلب مرآة مستعدة لأن تتجلى فيها حقيقة الحق في الأمور كلها . ويرى أن القلوب إنما خلت عن العلوم التي خلت عنها لأسباب خمسة (١) نقصان في ذاته كقلب الصبي

(٢) لكدورة المعاصي والخبث الذي

يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاله (٣) أن يكون معدولا به عن جهة

الحقيقة المطلوبة ، فان قلب المطيع الصالح وان كان صافياً فانه لا تتضح فيه جليلة الحق لأنه لا يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطالب ، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ، ولا يصرف فكره الى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية ، فلا يكشف له إلا ما هو متفكر فيه

(٤) الحجاب: فان المطيع القاهر لشهواته

المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق اليه منذ الصبا على

سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد (٥) الجهل بالجهة التي يقع منها العنور على المطلوب : فان طالب العلم لا يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطالبه ، حتى اذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار ، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة للمطلوب فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه .

٢٠ - ويرى الغزالي أن مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتركيبته وجلاؤه ، قد أفلح من زكاه ، يرى أن مراد تركيبته حضور أنوار الايمان ، ولهذا الايمان عنده ثلاث مراتب (١) ايمان العوام وهو إيمان التقليد المحض (٢) ايمان التكاملين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام (٣) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

الباب الاول



ما بينك وبين الله

« روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال
قيل لرسول الله ، يا رسول الله أين الله ؟ فى
الارض أو فى السماء ؟ قال : فى فلوب عباده
المؤمنين . »

الفصل الاول

معرفة الله

٢١ - العلم بالله : يقول الغزالي أن «خاصية الانسان العلم والحكمة ، واشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الانسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال ، فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته التي لأجلها خلق ، فخاصية الانسان هي معرفة حقائق الاشياء » . ويقول أن جملة عالم الملكوت والملك اذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لانها محيطة بكل الموجودات « إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة ، وهو سبب استحقاق الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله »

٢٢ - طرق المعرفة : ويقول الغزالي أن العلوم التي ليست

ضرورية أنما تحصل في القلب في بعض الأحوال وتختلف الحال في حصولها ، فتارة تهجم على القلب إلهاماً (لا بطريق الاكتساب وحيطة الدليل) كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم اعتباراً واستبصاراً ، وأن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الاشياء كلها ، لولا الحجب ، وقد تهب ربح اللطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام ، فيعلم به ما يكون في المستقبل ، وتتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء ، وينكشف أيضاً في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فيامع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي الى حد ما دوامه في غاية الندور . ولذلك لم يحرص أهل التصوف على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون ، بل قالوا الطريق الاقبال على الله تعالى .

٢٣ - ما يدل من أسماء العلوم : ولذا يرى الغزالي أن اسم الفقه في العصر الاول كان مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الاحاطة بمحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب وأنه كان متناولا للفتاوى في الاحكام الظاهرة ولكن بطريق العموم أو بطريق الاستتباع وان قوله تعالى «لهم قلوب لا يفقهون بها» أراد به معاني الايمان دون الفتاوى . وكذلك يرى الغزالي أن لفظ العلم كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عبادته وخلقه ، وقد صار الآن مطلقا على من لا يحيط بعلوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية . وكذلك قد جعل التوحيد الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والاحاطة بطرق مناقضات الخصوص والقدرة على التشديق فيها بتكثير الاسئلة واثارة الشبهات وتأليف الازمات ، مع أن التوحيد في العصر الاول كان عبارة عن أمر آخر ، وهو أن يرى الامور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الاسباب

والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله .
 فالتوحيد جوهر نفيس له قشران أحدهما عن اللب من الآخر
 — يرى الغزالي أن الناس خصصوا الاسم بالقشر وبصناعة
 الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية ، فالقشر الأول هو
 أن تقول بلسانك لا إله إلا الله وهذا يسمى توحيداً مناقضاً
 للتثليث الذي صرح به النصاري ولكنه قد يصدر من
 المنافق الذي يخالف سره جهره ، والقشر الثاني أن لا يكون
 في القلب مخالفة وانكار لمفهوم هذا القول بل يشمل ظاهر
 القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام
 الخلق ، والمتكلمون حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة ،
 والثالث وهو اللباب أن يرى الأمور كلها من الله وأن يعبد
 عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد
 اتباع الهوى فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . ولذا
 كان التذكير الكبير المحمود شرعاً هو التسكلم في علم الآخرة
 والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال
 وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ، والتذكير بآلاء الله

ونعمائه وتقدير العبد في شكره ، وتعريف حقارة الدنيا
وعيوبها ونصر مها ونكت عهدها وخطر الآخرة على الدنيا .
وبرى أنه لا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة
أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس ، ويندم تكثير الاشعار
في المواعظ لا سيما ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال
المعشوق وروح الوصال وألم الفراق التي لا تحرك من قلوب
أجلاف العوام إلا المستكن من الشهوات . ويندم الشطاح
بدماوى طويلة عريضة في العشق مع الله تعالى والوصال
المغنى عن الاعمال الظاهرة (كدعوى الاتحاد) ، والكلمات
ذات الظواهر الرائقة الغير مفهومة لقائلها بل صادرة عن
خبط في عقله وتشويش في خياله ، أو مفهومة له ولكنه
غير قادر على تفهيمها . وكذلك يطلق اسم الحكيم على الطبيب
والشاعر والمنجم ، مع ان الحكمة هى التى أثني الله عز وجل
عليها فقال تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يئث الحكمة
فقد أوتى خيراً كثيراً » .

٢٤ - الانسان معربه : ولذا يرى الغزالي أنه يجب

على الانسان أن يفهم التوحيد بأن يرى الاشياء كلها من مسبب
الاسباب ، ولا يلتفت الى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة
لاحكم لها . وأن يوقن بالثواب والعقاب بأن يغلب على قلبه
أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال
ذرة شرا يره ، وموقنا بأن الله تعالى مطلع عليه في كل حال
مشاهد له واجس ضميره وخفايا خواطره وفكره ، ويظهر
أثر الخشية عليه ، لا ينظر اليه ناظر الا وكان نظره مذكرا
الله تعالى . وكانت صورته دليلا على عمله ، فيكون أكثر
بحنه عن علم الاعمال (فان أصل الدين التوقى من الشر) ،
ويكون اعتماده في علومه على بصيرته وادراكه بصفاء قلبه ،
وأن يكون شديد التوقى من محدثات الامور ، وان اتقى
عليها الجمهور .

٢٥ - معنى كلمتى الشهادة : يقول الغزالى أن معنى
كلمتى الشهادة أن الله منزّه ليس بجسم مصور ولا جوهر
محدود مقدور ، لا يماثل الاجسام لافى التقدير ولا فى قبول
الاتقسام ، ليس بجوهر ولا تحلله الجواهر ، ولا بعرض

ولا تحله الاعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود،
ليس كماله شيء ولا هو مثل شيء، لا يحده المقدار ولا تحويه
الافكار، ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون
ولا السموات، وهو قريب من كل موجود وهو أقرب
الى البعد من جبل الوريد وهو على كل شيء شهيد، تعالى عن
ان يحويه مدّن كما تقدس عن ان يحده زمان، بائن عن خلقه
بصفاته ليس في ذاته سواء ولا في سواه ذاته، مقدس عن
التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل
لا يزال في نعوت جلاله منزها عن الزوال وفي صفات كماله
مستغنياً عن زيادة الاستكمال، وهو في ذاته معلوم الوجود
بالقول مرئى الذات بالأبصار، وهو تعالى حي قادر جبار
قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز؛ ولا تأخذه سنة ولا
نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وهو ذو الملك
والملكوت والعزة والجبروت، وهو عالم بجميع المعلومات
محيط بما يجري من تخوم الأرضين الى أعلى السموات،
لا يعزب عن علمه منقال ذرة في الأرض ولا في السماء،

يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى وَيُطْلِعُ عَلَى هَوَاجِسِ الضَّمَائِرِ وَحَرَكَاتِ
 الْخَوَاطِرِ وَخَفِيَّاتِ السَّرَائِرِ يَعْلَمُ قَدِيمَ أَزَلَى ، وَهُوَ تَعَالَى مُرِيدٌ
 لِلْمَكَائِنَاتِ مُدَبِّرٌ لِلْحَادِثَاتِ ، بَلْ هُوَ الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْفَعَالُ لِمَا
 يَرِيدُ ، لَا ارَادَ لَأَمْرِهِ وَلَا مَعْقِبَ لِقَضَائِهِ وَلَا مَهْرَبَ لِعَبْدٍ عَنْ
 مَعْصِيَةِ الْإِلَهِ بِتَوْفِيقِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ
 وَارَادَتِهِ ، وَهُوَ تَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، يَرَى مِنْ غَيْرِ حُدُوقَةٍ
 وَأَجْفَانٍ وَيَسْمَعُ مِنْ غَيْرِ أَصْمَخَةٍ وَأَذَانٍ ، وَهُوَ تَعَالَى مُتَكَلِّمٌ
 آمِرٌ ، نَاهٍ ، وَاعِدٌ مُتَوَعِّدٌ ، بِكَلَامِ أَزَلَى قَدِيمٍ قَائِمٍ بِذَاتِهِ
 لَا يَشْبَهُ كَلَامَ الْخَلْقِ ، فَالْقُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ
 كَتَبَهُ الْمُنْزَلَةَ عَلَى رِسْلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 لَا مَوْجُودَ سِوَاهُ إِلَّا وَهُوَ حَادِثٌ بِفَعْلِهِ وَقَائِضٌ مِنْ عَدْلِهِ عَلَى
 أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلَهَا وَأَتَمَّهَا وَأَعَدَّهَا ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ .
 وَأَمَّا الْكَلِمَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسْلِ بِالرَّسَالَةِ ، وَأَنَّهُ بَعَثَ
 النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الْقُرْشِيَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَتِهِ إِلَى كَافَّةِ
 الْعَرَبِ وَالْعِجَمِ وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، فَنَسَخَ بِشَرِيعَتِهِ الشَّرَائِعَ
 الْأَمَاقِرَ مِنْهَا ، وَفَضَّلَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَجَعَلَهُ سَيِّدَ الْبَشَرِ ،

ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد ما لم تقتزن بها شهادة الرسول ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٢٦ - ويقول الغزالي أن الركن الأول من أركان الايمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنه واحد ، وأن مدار هذا الركن على عشرة أصول (١) معرفة وجوده تعالى (والحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث ، فاذن لا يستغنى في حدوثه عن سبب) .

(٢) العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل ، أزلي ليس لوجوده أول (وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضا الى محدث وافتقر محدثه الى محدث وتسلسل ذلك الى مالا نهاية ، وما تسلسل لم يتصل أو ينتهي الى محدث قديم هو الاول) .

(٣) العلم بأن الله تعالى ليس لوجوده آخر ، فهو الاول والآخر والظاهر والباطن (لان ما ثبت قدمه استحالة عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم

لكن لا يخلو اما أن ينعدم بنفسه أو بعدم بضاده ، ولو جاز
أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه ، لجاز أن يوجد شيء
يتصور عدمه بنفسه ، فلو وجود سبب وللعدم سبب وباطل
أن ينعدم بعدم بضاده لان ذلك المعدم لو كان قديماً لتصور
الوجود معه . (٤) العلم بأنه تعالى

ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز .
(٥) العلم بأنه تعالى

ليس بجسم مؤلف من جواهر (لأن كل جسم يختص
بميز ومركب من جوهر ، والجوهر يستحيل خلوه عن
الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار .
وهذه سمات الحدوث) (٦) العلم بأنه تعالى

ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل (لان العرض ما يحل
في الجسم ؛ وكل جسم هو حادث لا محالة ويكون محدثه
موجوداً قبله . والله موجود في الأزل وحده ثم أحدث
الاجسام والاعراض بعده ، وهو عالم قادر مريد خالق وهذه
الاصناف تستحيل على الاعراض) (٧) العلم بأنه تعالى

يتمزّه الذات عن الاختصاص بالجهات (إذ هو الذى خلقها بواسطة خلق الانسان ، ومارفع الايدى عند السؤال الى جهة السماء الا لأنه قبلة الدعاء ولما فيه من اشارة الى ماهو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء) (٨) العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء ، وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق اليه سمات الحدوث والفناء ، وهو الذى أريد بالاستواء الى السماء .

(٩) العلم بأنه تعالى

مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والاقطار مرئى بالاعين والابصار فى الدار الآخرة لقوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » (والرؤية نوع كشف وعلم ، الا أنه أتم وأوضح من العلم) .

(١٠) العلم بأنه عز وجل

واحد لا شريك له و « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (فلو كانا اثنين وأراد أحدهما أمرا ، فالثانى عاجز مقهور ان كان مضطرا الى مساعدته وان قدر على مخالفته فهو قوى

قاهر والأول ضعيف قاصر)

ويقول الغزالي أن الركن الثاني من أركان الإيمان هو العلم بصفات الله تعالى ، بأنه « هو على كل شيء قدير » و « هو بكل شيء عليم » ، وأنه حي ، وأنه هو المبدى المعيد والفعال لما يريد ، سميع (بلا أذن) بصير (بلا حدقة) ، لا يغرب عن رؤيته هو اجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير . وأنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره

(ان الكلام لى القوادى انما جعل اللسان على القوادى لىلا)
وأن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث داخلاً تحت التغير ، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعثره التغيرات ولا تحله الحادثات (فكلام الله قديم وانما الحادث هى الاصوات الدالة عليه) . وأن علمه قديم (فلم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ومما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزل)

وأن ارادته وهى فى القدم تعلقت باحداث الحوادث فى أوقاتها الثلاثة بها على وفق سبق العلم الأزلى (اذ لو كانت حادثة لصار عمل الحوادث ، ولو حدثت فى غير ذاته لم يكن هو مریدالها) .

ويقول الغزالى ان الركن الثالث من أركان الايمان هو العلم بأفعال الله تعالى ، وأن كل حادث فى العالم هو فعله وخلقها واختراعه ، وان انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد ، لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا ، وان فعل العبد وان كان كسبا للعبد ، فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه وتعالى . وأن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ، ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه ، اذ هو الموجب والأمر والنهى . وأنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه . وأن لله عز وجل ايلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق ؛ لانه متصرف فى

ملكه (والظلم عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، وهو محال على الله تعالى) . وأنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء ، فلا يجب عليه رعاية الاصلح لعباده (اذ القبيح مالا يوافق الغرض ، فان أريد بالقبيح مالا يوافق غرض البارئ سبحانه فهو محال اذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح ، كما لا يتصور منه ظلم ، وان أريد القبيح مالا يوافق غرض الغير فهذا مجرد تشبه ، ثم معنى الحكيم العالم بمحقائق الاشياء القادر على أحكام فعلها على وفق ارادته) . وأن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل خلافا للمعتزلة (لان العقل وان أوجب الطاعة فلا يخلو ، اما ان يوجبها لغير فائدة وهو محال ، فان العقل لا يوجب العبث ، واما ان يوجبها لفائدة وغرض ، وذلك لا يخلو اما أن يرجع الى المعبود وذلك محال في حتمه تعالى ، واما أن يرجع ذلك الى غرض العبد وهو أيضا محال لانه لا غرض له في الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه ، وليس في المآل إلا الثواب والعقاب) . وأنه لا يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام

وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْرُ أَرْسَلِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
خَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ .

وبحسبنا الغزالي عن ركن رابع من أركان الايمان سماه
السمعيات وأهمها الحشر والنشر « ومن يحجي العظام وهي
رميم ، قل يحياها الذي أنشأها أول مرة » وسؤال منكر
ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وأن الجنة والنار
مخلوقتان .

الإيمان والاسلام : ويقول الغزالي أن موجب اللغة
أن الاسلام أعم والايمان أخص ، لان الايمان لغة عبارة
عن التصديق (وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان
ترجمانه) ، وأما الاسلام فعبارة عن التسليم (وهو عام في
القلب واللسان والجوارح) وقد ورد الشرع باستعمالهما على
سبيل الترادف والتوارد كقوله تعالى « يا قوم ان كنتم آمنتم
بالله ، فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » ، وورد على سبيل
الاختلاف كقوله تعالى « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا
ولكن قولوا أسلمنا » ، وورد على سبيل التداخل كما ورد

أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أى الأعمال أفضل فقال
« الاسلام » فسئل أى الاسلام أفضل فقال « الايمان » .
ويقول الغزالي ان الايمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة
أوجه :

(١) أنه يطلق للتصديق
بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانسراح
صدر ، وهو ايمان العوام ، وهذا الاعتقاد عقدة على القلب
تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى كالعقدة على
الخيوط مثلاً . والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما
يؤثر سقى الماء في نماء الاشجار ، ولذلك قال تعالى « ليزدادوا
ايماً نأمع ايمانهم » . فالايان يزيد وينقص وذلك بتأثير الطاعات
في القلب ، ولهذا قال على كرم الله وجهه « ان الايمان ليبدو
لمعة يبيض ، فاذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض
القلب كله ، وان النفاق ليبدو نكتة سوداء ، فاذا انتهك
الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله ، فيطبع عليه »
(٢) أن يراد به التصديق

والعمل جميعاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى

حين يزنى وهو مؤمن » (٣) أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانسراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة ، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ، ولكن يلاحظ أن الأمر اليقيني الذى لاشك فيه يختلف طمأنينة النفس اليه ، فليس طمأنينة النفس الى أن الاثنين أكثر من الواحد ، طمأنيتها الى أن العالم مصنوع حادث وان كان لاشك فى واحد منهما ، فان اليقينيّات تختلف فى درجات الايضاح ودرجات طمأنينة النفس اليها .

مهموس : فالغزالي يرى السبيل الموصلة لمعرفة صفاته وأفعاله ، وأن معرفة الله الحقّة مؤدية الى أن تعرف أن (الله أكبر) ، وهذه المعرفة تصل بك الى أن يكون رجاؤك فى الله وحده وخوفك منه وحده وعملك له وحده ، وهذا يصل بك الى أعظم مرتبة من مراتب التوحيد التى سنحدثك عنها فى الفصل الآتى ، وتصل بك هذه المرتبة العظيمة الى ما هو أعظم منها بأن ينكشف لك الافاعل الا الله تعالى وان كل شيء فى الوجود من الله وبالله والله .

الفصل الثاني

توحيد الله والتوكل عليه

٢٧ - توحيد الله : ويقول الغزالي ان التوحيد
 يترجمه قولك لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن هذا
 التوحيد له أربع مراتب : (١) أن يقول الانسان
 بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد
 المنافقين . (٢) أن يصدق بمعنى اللفظ
 قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام .
 (٣) أن يشاهد ذلك
 بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ،
 وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة
 عن الواحد القهار (٤) أن لا يرى في الوجود
 إلا واحدا وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية القناء
 في التوحيد لانه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه

ويوضح الغزالي المرتبة الثالثة بأن ينكشف لك الأفاعل
 الا الله تعالى وان كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع
 وحياة وموت وغني وفقر الى غير ذلك مما ينطلق عليه
 اسم ، **المتنوع** بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لاشريك
 له فيه « فان تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه
 توكلت وهو رب العرش العظيم » ، واذا انكشف لك هذا
 لم تنظر الى غيره بل كل من منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقته
 وعليه اتكالك ، فانه الفاعل على الانفراد دون غيره ومساواه
 مسخرون لاستقلالهم بتحريك ذرة من ملكوت
 السموات والارض . ويضرب لنا الغزالي مثل القلم وقد
 خط به صاحبه كلمة نجاة لك مثلاً فهل تنسب هذه النجاة
 للقلم أم تنسبها لصاحبه ؟ لا ريب أن تلك الكلمة وقد يكون
 فيها لك الخير كله منسوبة لمن بيده القلم ، ولكن هل يملك
 لك حامل القلم أقل نفع أو أقل ضرر ؟ الجواب لا . . . لانه
 لا يملك لنفسه جلب أقل نفع أو دفع أقل ضرر ، فيجب اذن
 أن لا ترجو سوى الله لان حامل القلم (وهو في مثالي مصدر

(الامر) مسخر تحت قهر الله وقدرته مردد في قبضته ،
 فالله هو الاول بالاضافة الى الموجودات اذ صدر منه الكل
 على ترتيبه واحدا بعد واحد ، وهو الآخر بالاضافة الى سير
 السائرين اليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل الى
 أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر ،
 فهو آخر في المشاهدة أول في الوجود ، وهو الباطن بالاضافة
 الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس
 الخمس ، وهو الظاهر بالاضافة الى من يطلبه في السراج
 الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملوكوت .
 ولكن ما القول في أمر زيد (وليكن بترقية فلان
 أو بفصله من وظيفته) ، أليس اذا شاء أن يكتب كتب
 وان شاء أن يتمتع امتنع ؟ يقول الغزالي ان الفعل الاختياري
 (ككتابة الانسان بالاصابع) والفعل الارادي (كتنفسه
 بالرئة والحجرة) منسوب اليه ، ولكن الجبر ظاهر في الفعل
 الطبيعي (كالتنفس) لانه ضروري « فالفعل الاختياري
 هو مظنة الالتباس وهو الذي يقال فيه ان شاء فعل وان

شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا ان الامر اليه ، ولكن يوضحه ان الارادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشئ موافق لك ، والاشياء تنقسم الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه لا يوافقك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل فيه ، فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد بدنك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق لك فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة اليد بدفع السيف من غير روية فكرة ويكون ذلك بالارادة ، ومن الاشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك ، فاذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحقق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر ، فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعت لدفع السيف ، فاذا انبعثت لفعل مظهر للعقل انه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير اى هو انبعثت الى مظهر للعقل انه خير وهو عين تلك الارادة . فلاختيار

عبارة عن ارادة خاصة وهى التى انبعثت منها بإشارة العقل
فيماله فى ادراكه توقف ، ولايتصور أن تنبعث الارادة
الابحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل . فاذا معنى
كونه مجبورا ان ما حصل حصل من غيره لامنه ومعنى
كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل
بكون الفعل خيرا محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبرا
فاذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار فى الاحراق مثلا
جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على
منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار يسمى كسبا »

ويقول الغزالى ان حواله جميع ذلك على المنهى الذى
يعبر عنه بالقدرة الازلية ، فبعض المقدورات مترتب على
البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر
من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ، ولاعلم الا بعد حياة
ولاحياة الا بعد محل الحياة .

ولكن كيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى
التوحيد أن لا فاعل الا الله تعالى ، ومعنى الشرع اثبات

الافعال للعباد ، فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ، وان كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ؟ يقول الغزالي ان الله فاعل بمعنى أنه المخترع الموجد ، ومعنى كون العبد فاعلا انه العمل الذي خاق فيه الارادة بعد أن خق فيه العلم فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباطا اشروط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباطا المعلول بالعلة وارتباطا المخترع بالمخترع « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ، فاسم الفاعل في الحقيقة لله ولغيره بالمجاز .

٢٨ - التوكل على الله : ويقول الغزالي « ان لمقام التوكل على الله اعتقادا قاطعاً لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقا بقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ، ان الله عز وجل لو خلق الخلق كما هم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار المكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير

والشر والنفع والضر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملوكوت
بما أعطوا من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم مع
التعاون والتظاهر عليه ان يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به
في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح
بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن ينخفض منها ذرة
ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر عمن
بلى به ولا يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله
به عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والارض ان
رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر مارأوا فيها من تفاوت
ولا فطور ، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل
وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية
فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه ،
بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وبالقدر الذى
ينبغى وليس فى الامكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل
ولو كان ادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا
يناقض الجود وظلما يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان

عجزا يناقض الالهية ، بل كل فتر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة ، وكل نقص في الآخرة بالاضافة الى شخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تنعم الاصحاء بالصحة ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة .

فالغزالي يقول ان الخير والشر مقضى به وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

ويقول الغزالي « ان التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ، فان ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم انه لا فاعل إلا الله ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وانه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك دناية ورحمة

اتكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه
ولا الى نفسه وحوله وقوته فانه لاحول (حركة) ولا قوة
(قدرة) الا بالله . ويقول ان كنت لاتجد هذه الحالة من
نفسك فهذا اما لضعف اليقين باحدى هذه الخصال الاربعة
وأما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه
بسبب الاوهام الغالبة عليه ، فاذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب
وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطماننته

٢٩ - ويرى الغزالي أن التوكل في القوة والضعف
ثلاث درجات (١) أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة
بكفالاته وعنايته كحالته في الثقة بالوكيل وهذا لا يترك التدبير
الذي أشار اليه وكيه به أو التدبير الذي عرفه من عادته
وسنته دون صريح اشارته

(٢) أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل
مع أمه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى أحد سواها
ولا يعتمد إلا إياها ، فاذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم
يخافها ، وان نابه أمر في غيبتهما كان أول سابق إلى لسانه يأمراه

وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فانها منزعجه فانه قد وثق بكفالتها وكفائتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع ادراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع ، فمن كان بالله الى الله عز وجل ونظره اليه واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً ، وهذا يقتضى ترك السؤال من غير الله (٣) أن يكون بين يدي الله تعالى في حركانه وسكناؤه مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميسر ، وهو الذي قوى يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والمعلم وسائر الصفات وان كلا يحدث جبراً ، فهو مثل صبي علم انه وأن لم يزق بامه فالأم تطلبه وانه لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله وان لم يسألها اللبن فالأم تقاومه وتسقيه . وهذا المقام في التوكل يشعر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وانه يعطى ابتداء أفضل مما يستل فكم من نعمة ابتدأها (قبل السؤال والدعاء) بغير الاستحقاق .

٣٠ - وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب

٧٣

بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة
 الملقاة وكاللحم على الوضغ ، فيقول الغزالي ان هذا ظن الجاهل
 فالقطوع به (وذلك مثل الاسباب التي ارتبطت المسببات
 بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف) ان لاشيع
 بلاأكل وأن الخبز لايسعى اليك بل تسعى اليه ، وأنت
 الذى تمضغه وهو لن يعض نفسه ولن يسخر الله لك ملكا
 لتوصيله الى معدتك ، والمقطوع به أن الثمر لا يأتي من غير
 زرع وأنتك لن يكون لك نسل من غير زواج ، وهكذا ..
 فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالعلم (بانه تعالى
 خلق الطعام واليد والاسنان الخ ... وانه الذى يطعمك
 ويسقيك) والحال (بان يسكن قلبك وتعتمد على فعل الله
 تعالى لاعلى اليد والطعام الخ ... لان اليد قد تغلج وقد يطرأ
 عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك الخ ..) .
 أما الاسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب ان
 المسببات لا تحصل دونها (كالذى يسافر في البوادي التي
 لا يطررها الناس الا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب

زاد) فهذا ليس شرطاً في التوكل ولكن فعله جائز بشرط أن يكون قد راض نفسه وجاهدتها وسواها على الصبر عن الطعام (مثلاً) اسبوعاً وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى .

أما ملازمة الاسباب التي يقوم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصى في النديرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح ، فأما أخذ الشبهة او باكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الاسباب ، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل (وهذا مثل الاسباب التي نسبتها الى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة) . أى ان الغزالي يرى أن الاسباب منقسمة الى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج ، وان الذي يخرج ينقسم الى مقطوع به وإلى مظنون ، وان المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود

حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الاسباب ،
 فالتوكل فيها بالحال والعلم بالعمل ، وأما المظنونيات فالتوكل
 فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً . ويقول الغزالي ان المقصود
 اصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود
 المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمحذور ما يشغل عن الله
 عز وجل ، والا فالدينيا في عينها غير محذورة لوجودها
 ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى
 أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف
 والصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك
 حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل
 الى الله تعالى وأرشدكم الى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف
 قلوبهم عن الدنيا الى الله تعالى . فالتوكل عبارة عن موحد
 قوى القلب مطمئن النفس الى فضل الله تعالى واثق بتدبيره
 دون وجود الاسباب الظاهرة . ويقول الغزالي ان صواب
 الضعيف ادخار قد حاجته كما أن صواب القوى ترك
 الادخار ، فاما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت

سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكيننا لقلوبهم .
والضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من
شروط التوكل ترك الاسباب الدافعة رأسا ، أما في النفس
فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادى
أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهى
عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك ، ولكن يلاحظ أن
ترك الموهوم منها (وهى التى نسبتها الى دفع الضرر نسبة
الرقية والسكى) من شرط التوكل ، ولترك الاسباب الدافعة
ان كانت مقطوعة (أو مظنونة) وجه اذا ناله الضرر من
انسان فانه اذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى فشرط
التوكل الاحتمال والصبر ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع
والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل فى شيء اذ لا فائدة
فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لاعاته على الدين
وكذلك فى الاسباب الدافعة عن المال فلا ينقض التوكل
باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن
هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى اما قطعوا اما ظنا اذ قال

تعالى « خذوا حذرکم » وقال صلى الله عليه وسلم للاعرابي
لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله « اعقلها وتوكل » ،
وهو يكون متوكلا بالعلم (بأن يعلم أن الاصل مثلا ان اندفع
لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع الا بدفع الله
تعالى إياه) والحال (بأن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى
به في بيته ونفسه من خير وشر) .

والأسباب المزيله للضرر أيضا تنقسم الى مقطوع به
كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ،
والى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر
أبواب الطب أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة
وهي الأسباب الظاهرة في الطب ، والى موهوم كالسكى
والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه
حرام عند خوف الموت ، وأما الموهوم فشرط التوكل تركه
والاعتماد عليه والانسكال اليه غاية التعمق في ملاحظة
الاسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة (كالدواة
بالاسباب الظاهرة عند الاطباء) . ففعله ليس مناقضا للتوكل

بمخلاف الموهوم ، وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع
بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الاحوال وفي بعض
الاشخاص (ومن أودع العقاقير منافع الأشياء غير الله ؟) ،
ويدل على أن التداوى غير منافية للتوكل فعل الرسول الكريم
وقوله « تداووا عباد الله ، فإن الله خلق الداء والدواء » .

ويقول الغزالي ان كتمان المرض واخفاء الفقر وأنواع
البلاء من كنوز البر ، لان الرضى بحكم الله والصبر على بلائه
معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمان أسلم عن الآفات ،
وبمع هذا فالإظهار لأبأس به الا اذا صححت فيه النية والمقصد ،
ومقاصد الاظهار ثلاثة (١) أن يكون غرضه
التداوى فيحتاج الى ذكره للطبيب فيذكره لافي معرض
الشكاية بل في معرض الحكاية (٢) أن يصف لغير
الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من
ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر
(٣) أن يظهر بذلك مجزه
وافتيقاره الى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة

الفصل الثالث

عبادة الله تعالى

٣١ - الطهارة : قال تعالى « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ، ولكن يريد ليطهركم » ، ويقول الغزالي ان لهذه الطهارة أربع مراتب (١) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الاخباث والفضلات (بالاستنجاء فاذا فرغ منه اشتمل بالوضوء ويتدى بالسواك ويزيل القلح من على الاسنان وطرف اللسان ، ثم يجلس للوضوء بفعل يديه والمضمضة والاستنشاق وغسل الوجه وغسل اليدين الى المرفقين ومسح الرأس وغسل الرجلين (ثلاثا في كل) ويزاد في الغسل بعد ازالة ما على البدن من نجاسة ان كانت صب الماء على الرأس ثم على الشق الايمن ثم الشق الايسر (ثلاثة في كل) . ومن تعذر عليه استعمال الماء لفقده أو بمانع له عن الوصول اليه من سبع أوحابس أو كان الماء الحاضر

يحتاج اليه لعطشه أو عطش رفيقه أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضني ، فإنه ان يتيمم بالمسح بالتراب الطاهر الخالص اللين. (٢) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (٣) تطهير القلب عن الاخلاق المذمومة والزائل الممقوتة (٤) تطهير السر عما سوى الله تعالى

٣٢ - الصورة : والصلاة ذكر إذ قال تعالى « وأقم الصلاة لذكري » ويقول الغرالى إن الذكر فى الصلاة هو محاورة ومناجاة مع الله عز وجل (حمد وثناء وتضرع ودعاء) ، والمقصود الحروف من حيث أنه نطق ، ولا يكون نطقا الا إذا أعرب عما فى الضمير ، ولا يكون معربا إلا بحضور القلب . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ولا يكون معظما لله عز وجل الغافل عنه ، فحضور القلب هو روح الصلاة . فيرى ان حياة الصلاة لا تتم الا بحضور القلب بان يفرغ عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما

ولا يكون الفكر جائلا في غيرهما ، فان قلبك تابع لهما
 فلا يحضر الا فيهما ، فملاج احضار القلب صرف الهمة
 الى الصلاة ، وكذلك يجب التفهم بادمان الفكر بعد حضور
 القلب وصرف الذهن الى ادراك المعنى بالاقبال على الفكر
 ودفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها بالتزوع عن تلك
 الاسباب التي تنجذب الخواطر اليها وهجوم حب الله على
 القلب لتصفو صلاتك عن الخواطر . وكذلك يجب عليك
 في صلاتك تعظيم الله بمعرفة جلاله وعظمته وحقارة النفس
 وخستها ، وأن تهابه (والهيبه خوف مصدره الاجلال)
 وأن تكون راجيا بصلاتك ثواب الله عز وجل وأن تكون
 حيا مستشعرا التقصير في العبادة متوهما الذنب لعلمك
 بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل .

٣٣ - دواء لحضور القلب : فالغزالي يرى أن
 انفكك المؤمن عن تعظيم الله عز وجل في صلاته وخوفه
 منه ورجائه له واستحيائه من تقصيره (وهذه أحوال ملازمة
 له بعد إيمانه ، وقوتها بقدر يقينه) ، لاسبب له إلا تفرق

الفكر وتقسم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة ، ولا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة فالدواء في احضار القلب هو دفع تلك الخواطر ، ولا بدفع الشيء إلا بدفع سببه .

٣٤ - ويقول الغزالي « ان سبب موارد الخواطر اما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً ، أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر ، فان ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة الى غيره ويتسلسل ، ومن قويت نيته وعات همته لم يلهه ماجرى على حواسه ، ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب (بأن ينفذ بصره أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره) . وأما الاسباب الباطنة فهي أشد ، فان من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا ، لا ينحصر فكره في فن واحد ، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً الى فهم ما يقرؤه في الصلاة وشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك

٨٣

أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة، فإن كان لا يسكنها أفساره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة له عن احضار القلب، ولا شك أنها تعود إلى مهماته، وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالتزوع عن الشهوات وقطع تلك العلائق، أما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين، بل لا يزال يجاذبها وتجاذبه ثم تغلبه وتنقض جميع صلاته في شغل المجاذبة»

٣٥ - الزكاة: وقد قال تعالى «واقموا الصلاة وآتوا الزكاة»، وهو ربيع العشر، ويقول الغزالي إن على مريد الآخرة بركاته وظائف (١) فهم وجوب الزكاة ومعناها، ووجه الامتحان فيها شكر النعمة وتطهير النفس من صفة البخل بأن تتعود بذل المال وامتحان حبنا لله بمفارقةنا لجزء من أموالنا «وان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، بأن لهم الجنة» (٢) التعجيل عن وقت

الوجوب اظهارا للرغبة في الامتنال بإيصال السرور الى قلوب
الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان ان تعوقه عن الخيرات

(٣) الاسرار ، فان ذلك

أبعد عن الرياء والسمعة (٤) أن يظهر حيث يعلم أن
في اظهاره ترغيبا للناس في الاقتداء (٥) أن لا يفسد صدقته
بالن (بذكرها) والأذى (بإظهارها والتكبر على الآخذ
وتعيريه بالفقر وانتهاره وتوبيخه). (٦) أن يستصغر العطية
فانه ان استعظمها أعجب بها والعجب محبط للأعمال

(٧) أن ينتقى من ماله أجوده

وأحبه اليه وأجله وأطيبه (٨) أن يطلب لصدقته من
تزكوه الصدقة ، فيطلب الاتقياء ، لان التقى يستعين به على
الثقوى فتكون شريكا له في طاعته باعانتك اياه ، وان يكون
من أهل العلم خاصة اعانة له على العلم ، وان يكون صادقا في
تقواه وعلمه بالتوحيد بانه اذا أخذ المطاء حمد الله عز وجل
وشكره ورأى النعمة منه ولم ينظر الى واسطة ، وان يكون
هستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ، أو يكون من

أهل المروءة ممن ذهب نفعته وبقيت طاقته ، وأن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو سبب من الأسباب، وأن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم ، والاصدقاء واخوان الخير يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب .

٣٦ - ويرى الغزالي أن وظائف القابض : -

(١) أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة ليكفي همه بجعل همومه هماً واحداً وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر، ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله ، فإن لم يقدر عليه فليصرفه الى ما أباحه الله عز وجل والا كان مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه (٢) أن يشكر المعطى ويدعوله ويشتي عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج منه كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه اليه ، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه . ومن تمام الشكر ان يستر عيوب العطاء ان كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع اذا منع ويفخّم عند نفسه وعند الناس صنيعه

(٣) أن ينظر فيما يأخذه ، فان

لم يكن من حل ، تورع عنه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا
ويرزقه من حيث لا يحتسب (٤) أن يتوق مواقع الريبة
والاشتباه في مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ الا المقدار المباح ،
ولا يأخذ الا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق
(فقير ، مسكين ، عامل ، مؤلف قلبه على الاسلام ، مكاتب ،
غارم ، غازی في سبيل الله ، ابن سبيل)

(٥) أن يسأل صاحب المال عن

قدر الواجب عليه ، فان كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه
منه ، فانه لا يستحق مع شريكه الا الثمن .

٣٧ - ويوجد في الاسلام غير الزكاة صدقة التطوع

اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق
تمر » ، فان لم تجدوا بكمة طيبة » ، ويقول الغزالي اننا لنحكم
حكما باتا بأن اخفاء الصدقة أفضل في كل حال أو اظهارها
أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات ، وتختلف النيات
باختلاف الاحوال والاشخاص ، وان كان على الجملة الاخذ

في الملأ والرد في السر أحسن المسالك وأسماها ، والاختفاء
أبقى للستر على الآخذ ، وأسلم لقلوب الناس وألسنتهم (فانهم
ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه) ، وإعانة المعطى على
أسرار العمل (فان فضل السر على الجهر في الاعطاء أكثر)
وعدم اذلال وامتهان للآخذ (وليس للمؤمن أن يذل نفسه) ،
واحتراز عن شبهة مشاركة الحاضرين فيها . ولكن مع
هذا في الاظهار والتحدث اخلاص وصدق وفي الاظهار اقامة
لسنة الشكر « وأما بنعمة ربك فحدث » وبيان أن العارف
لأنظر له الا الى الله عز وجل والسر والعلائية في حقه واحد
٣٨ - الصوم : أما الصوم فيقول الغزالي فيه
أنه ثلاث درجات : صوم العموم (بكف البطن والفرج
عن قضاء الشهوة) وصوم الخصوص (بكف السمع والبصر
واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام) وصوم
خصوص الخصوص (بصوم القلب عن الهمم الدنيئة
والافكار الدنيوية وكفّه عما سوى الله عز وجل بالسكينة) .
وأما صوم الخصوص بكف الجوارح عن الآثام فقامه

بسته أمور (١) غص البصر وكفه

عن الاتساع في النظر (النظر يشهوة) الى كل ما يذم ويكره
والى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل .

(٢) حفظ اللسان عن

الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة
والمرء ، والزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتعالى

وتلاوة القرآن (٣) كف السمع عن

الاصغاء الى كل مكروه ، لان كل ما حرم قوله حرم الاصغاء
اليه . (٤) كف بقية الجوارح عن

الآثام من اليد والرجل وعن المسكاره ، وكف البطن عن
الشبهات وقت الافطار (بالكف عن الطعام الحرام)

(٥) أن لا يستكثر من

الطعام الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء جوفه ، اذ مقصود
الصوم اخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى

(٦) أن يكون قلبه بعد

الافطار معلقا مضطربا بين خوف رد صومه ورجاء قبوله

٣٩ - الحج : وقد فرض الله تعالى الحج على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع (بأن تمكنه صحته من ذلك وأن تكون الطريق آمنة ، وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه الى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدة) .
ويقول الغزالي ان أول الحج فهم موقعه في الدين ويوضح ذلك بقوله أنه لا وصول الى الله تعالى إلا بالتزهد عن الشهوات والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات ، ولاجل هذا انفرد الربانيون في الملل السالفة عن الخلق وانحازوا الى قائل الجبال ، فالحج رهبانيتها ، فشرف الله البيت العتيق بالاضافة الى نفسه تعالى ، ونصبه مقصد العبادة وجعل ماحواله حرماً لبيته تفخها لأمره وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، يقصده الزوار من كل فج عميق شعنا غير امتواضه لرب البيت ومستكينين له ، مع الاعتراف بتزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في عبوديتهم وأتم في اذعانهم ، ولذلك وظف عليهم أعمالاً لأناس بها النفوس ولا تهتدى الى معانيها العقول كرى

الجوار بالاحجار والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار
 وذبح الهدى . فاذا تحقق بأن البيت بيت الله ، فينبعث شوقه
 للحج ، وبعد الشوق يرى الغزالي أنه يأتي العزم على الحج فيقول
 انه يجب أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى بعيدا
 عن شوائب الرياء والسمعة . فاذا عزم برى الغزالي وجوب
 قطع العلائق ويفسر به انه رد المظالم والتوبة الخالصة لله
 تعالى عن جملة المعاصي ، ويقول بوجوب أن يطلب الزاد
 من موضع حلال ، وليتذكر ان سفر الآخرة أطول من
 هذا السفر وان زاده التقوى . واذا أحضر الرحلة فليشكر
 الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه
 الأذى وتخفف عنه المشقة ، وليتذكر عنده المراكب الذي
 يركبه الى دار الآخرة وهى الجنابة التى يحمل عليها . واذا
 اشترى ثوبى الاحرام ليتزبر بهما عند القرب من بيت الله
 عز وجل ، فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه عند لقاء الله
 عز وجل (وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب اذ ليس فيه
 مخيط كما في الكفن) .. ويمضى الغزالي فى حديثه فيقول اذا

خرج من البلد فليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول .
 وإذا دخل البادية الى الميقات وشاهد تلك العقبات ، فليتذكر
 فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات يوم القيامة
 وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وإذا أحرم ولبي من
 الميقات ، فليعلم ان معناه اجابة نداء الله عز وجل فليرجع أن يكون
 مقبولا ولا ليخش أن يقال له لا لبيك ولا سمعديك . فإذا
 دخل مكة ، فليتذكر عندها انه قد انتهى الى حرم الله تعالى
 آمننا ، ويرجع عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل .
 فإذا وقع بصره على البيت فينبغي أن يحضر عنده عظمة
 البيت في القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لب البيت لشدة
 تعظيمه اياه ، وليذكر انصباب الناس في القيامة الى جهة
 الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم الى مأذنين في
 الدخول ومصرفين انقسام الحاج الى مقبولين ومردودين .
 وبهذه المعاني يفسر الغزالي باقى الاعمال فيقول ان الحاج اذا
 طاف بالبيت ، فليعلم انه صلاة ، وليعلم انه بالطواف متشبه
 بالملائكة المقربين الخافين حول العرش الطائفين حوله ، ولا

يظن أن المقصود طواف جسمه بالبيت بل طواف القلب
 بحضرة الربوبية ، وان البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك
 الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن
 البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد
 بالبصر وهو في عالم الغيب . فاذا استلم فليعتقد عنده انه
 مباع لله عز وجل على طاعته ، فليصمم عزيمته على الوفاء
 ببيعته . فاذا تعلق باستار الكعبة والتصق بالملتزم ، فلتكن
 نيته في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت
 ولتكن نيته في التعاق بالستر الالحاح في طلب المغفرة
 وسؤال الأمان ، فاذا سعى بين الصفا والمروة في فناء البيت ،
 فليتزكز عنده ترده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة ،
 وليتمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات .
 فاذا اعتكف بعرفة ، فليذكر بما يرى من ازدهار الخلق
 وارتفاع الاصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم ،
 عرصات القيامة واجتماع الامم مع الانبياء والائمة واقفاء
 كل أمة نبيها وطعمهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعود

الواحد بين الرد والقبول ، وإذا تذكر ذلك فليلزم قلبه
الضراعة والابتهاال الى الله عز وجل فيحشر في زمرة الفائزين
المرحومين ، وليحقق رجاءه بالاجابة . وإذا زار المدينة ،
فليتذكر انها البلدة التي اختارها الله لنبيه . فاذا زار رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فينبغي أن يقف بين يديه بسكينة
ووجل ؛ وليمثل صورته الكريمة في خياله وليحضر عظيم رتبته
في قلبه . ويجب أن يلزم قلبه الحزن والخوف والهم اذا يدرى
أيقبل منه حجه أم يرد .

❖ — تملوة القرآنة : ومن العبادة تلاوة القرآن ،
ويقول الغزالي ان ظاهر آداب التلاوة (١) أن يكون القارئ
على الوضوء واقفا على هيئة الادب والسكون اما قائما واما
جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكئ
ولا جالس على هيئة التكبر (٢) أولى ما يرجع اليه
في مقدار القراءة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من
قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » وذلك لان الزيادة
عليه تمنع الترتيل ، والترتيل هو المستحب في هيئة القرآن ،

لان المقصود من القراءة التفكير والترتيل معين عليه ، لان الترتيل والتؤدة أقرب الى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب من الهدرمة والاستعجال ، ويجب أن يحسن القراءة ويرتأها بترديد الصوت من غير تمطيط مفراط يغير النظم (٣) أن يتعوذ بالله في

مبتدأ قراءته ، وليقل عند فراغه صدق الله وبلغ رسوله ، ويستحب أن يبكي مع القراءة وأن يراعى حق الآيات ، فاذا مر مثلاً بآية سجدة سجد (٤) لا بد أن يجهر بالقراءة الى حد يسمع نفسه ، لان الجهر يوقظ قلب القارئ ويجمع همه الى الفكر فيه ويصرف اليه سمعه ، ولكن الاسرار أبعد عن الرياء والتصنع .

ويرى الغزالي أن أعمال الباطن في التلاوة : -

(١) فهم أصل الكلام

وعظمته وعالوه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه ، وينبغي أن يحضر القارئ في قلبه عظمة التكلم ويعلم أنه « لا يسه

إلا المطهرون » وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس
 عن ظاهر بشرة اللامس الا اذا كان متطهرا ، فباطن معناه
 أيضا بحكم عزه وجلاله محبوب عن باطن القلب إلا اذا
 كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير ،
 وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد ، فلا يصلح لتلاوة
 حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب (٧) حضور القلب
 وترك حديث النفس ، والتدبير وهو وراء حضور القلب ،
 والتفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، فاذا ذكر
 الله خلق السموات والارض وغيرها ، فليفهم التالى منها
 صفات الله عز وجل وجلاله اذ الفعل يدل على الفاعل ،
 فتدل عظمته على عظمته ، فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل
 دون الفعل ، فمن عرف الحق رآه فى كل شيء ، اذ كل شيء
 فهو منه واليه وبه وله ، فهو الكل على التحقيق ، ومن
 لا يراه فى كل ما يراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف
 ان كل شيء ما خلا الله باطل وان كل شيء هالك إلا وجهه ،
 لا انه سيبطل فى ثانى الحال الآن بل هو باطل ان اعتبر

ذاته من حيث هو الا ان يعتبر وجوده من حيث انه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض .

(٣) النخلى عن موانع

الفهم . (وهي أن يكون الهم منصرفا الى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها ، أو ان يكون مقلدا لمذهب سماعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة ، أو أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع أو أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد انه لا معنى لكلمات القرآن الا ما تناوله النقل ، وان ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، مع ان في معاني القرآن متسماً لأرباب الفهم والمنوع التفسير بالرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح) (٤) التخصيص وهو

ان يقدر انه المقصود بكل خطاب في القرآن ، فاذا سمع أمراً او نهياً ، قدر انه المنهى والمأمور ، وان سمع وعداً

أو وعيداف كمثل ذلك ، وإن سمع قصص الأوابين والأنبياء ،
علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ
من نضاعيفه ما يحتاج إليه (هـ) التأثير وهو أن
يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون
له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن
والخوف والرجاء وغيره . « وتلاوة القرآن حق تلاوته هو
أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان
تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعاني ،
وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والاثمار ، فاللسان
يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ » فيترقى الى أن يسمع
الكلام من الله عز وجل لامن نفسه ، ويبرأ من حوله
وقوته والالتفات الى نفسه بعين الرضى والتزكية .

٤١ - ذكر الله ودعاؤه : وقد قال تعالى « واذكر
ربك في نفسك تضرباً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو
والأصل ، ولا تكن من الغافلين » وقال « ادعوني أستجب
لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم

داخرين . » . ويقول الغزالي ان المؤثر النافع هو الذكركر على
الدوام (أوفى أكثر الاوقات) مع حضور القلب ، وهو
المقدم على سائر العبادات ، بل به تشرف وهو غاية ثمرتها
العملية ، وأول الذكركر يوجب الانس والحب وآخره يوجبه
الانس والحب ويصدر عنه ، وهو المطلوب . ويفهم من
قوله تعالى « اذكركر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل
فاسجد له ، وسبحه ليلا طويلا » وجوب احياء الليل ، ولكن
قيام الليل عسير على الخلق إلا من وفق للقيام بشروطه اليسرة
له ظاهرا وباطنا . فأما الظاهرة فيراها الغزالي أربعة أمور :
أن لا يكثر الاكل (فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه
القيام) وأن لا يتعب نفسه بالنهار في الاعمال التي تعيها بها
الجوارح وتضعف بها الاعصاب ، (فان ذلك أيضا مجلبة
للنوم) وأن لا يترك القيلولة بالنهار (فانها سنة للاستعانة
على قيام الليل) ، وأن لا يحتقب الاوزار بالنهار فان ذلك مما
يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة لان الخير يدعو
الى الخير والشر يدعو الى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر الى

الكثير. وأما الميسرات الباطنة فيراها الغزالي أربعة أمور أيضا:
سلامة القلب عن الحقد وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا
وخوف غالب يلزم القلب مع قصر الامل، وان يعرف فضل
قيام الليل حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه الى ثوابه، والحب
لله وقوة الايمان بان في قيامه لا يتكلم بحرف الا وهو مناج
به ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه. ويقول
الغزالي ان الاوراد تختلف باختلاف الاحوال: فالعابد المتجرد
للعباداة الذي لا شغل له غيرها أصلا، ترتيب أوراده ان يستغرق
أكثر اوقاته اما في الصلاة أو في القراءة أو في التسبيحات.
أما العالم فانه يحتاج الى المطالعة للكتب والى التصنيف والافادة
ويحتاج الى مدة لها لا محالة، فيجب ان يعلم هو والمتعلم (والوالى
مثل الامام والقاضى) أن الاشتغال بالعلم (وحاجات المسلمين
واغراضهم على وفق الشرع وقصد الاخلاص) أفضل من
الاشتغال بالاذكار والنوافل. أما المحترف الذى يحتاج
الى الكسب لعياله، فليس له أن يضيع العيال ويستغرق
الأوقات فى العبادات، بل ورده فى وقت الصناعة حضور

السوق والاشتغال بالكسب ، ولكن ينبغي ان لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته بل يواظب على التسبيحات والاذكار وقراءة القرآن . وأما الموحّد المستغرق بالوحد الصمد الذي أصبح همه واحدا ، فلا يحبّ الا الله تعالى ولا يخاف الا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء الا ويرى الله تعالى فيه ، فكل ورده حضور القلب مع الله تعالى في كل حال ، فلا تميز عنده عبادة من عبادة .

٤٢ - ويقول الغزالي ان آداب الدعاء هي :-

(١) أن يترصد لدعائه

الاقوات الشريفة (كأيام رمضان ويوم الجمعة ووقت السحر) ، وأن يغتنم الاحوال الشريفة (كخلف الصلوات وفي الصيام) .

(٢) أن يدعو مستقبل

القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض ابطيه ، ثم يمسح بهما وجهه في آخر الدعاء ، ولا يرفع بصره الى السماء ، وأن يخفض الصوت بين الخافتة والجر (٣) أن لا يتكلف السجع في الدعاء ، فان حال الداعي ينبغي أن يكون حال تضرع

والتكاف لا يناسبه ، وأن يتضرع ويخشع ويرغب ويرهب ،
وأن يجزم الدعاء ويوقن بالاجابة ، وأن يلج في الدعاء ويكرره
ثلاثا ، وأن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبدأ
بالسؤال (٤) الأدب الباطن

وهو الاصل في الاجابة : التوبة ورد المظالم والاقبال على الله
عز وجل بكنه الهمة . هذا ويجب الاستغفار اتباعا لقوله تعالى
« والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله
فاستغفروا لذنوبهم » والصلاة على النبي اذ قال تعالى « أن
تؤمنوا بكلمة يصح لونها على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه
وسلموا تسليما » .

٤٣ - ويلاحظ أن الغزالي أورد صورا كثيرة
للدعاء ونماذج عدة للأوراد ، وأكبر ظني أنه يكفي مثلا أن
تعرف في باب الدعاء لم تدعورك وكيف تدعوه وبأي معنى
من معاني الخضوع يجب أن تلجأ اليه ، ولا ضرورة لأن
تتبع لفظا معينا أو عبارة خاصة ، وكذلك يكفي أن تعرف
أنه يجب أن تذكر ربك بلسانك وقلبك ، ولا معنى لأن

تقييد نفسك بلفظ خاص في الذكر أو بعبارات خاصة أو
 بعدد معين من العبارات ، لان الصلة بين العبد وربّه يجب
 أن تكون صلة خضوع مجردة عن الكيف والكم والزمان
 والمكان ، فعلى العبد أن يخضع لربه أينما وجد وأنى وجد ،
 وعليه أن يذكره أينما كان وأنى كان ، وقد تكون كلمة
 « تبارك الله أحسن الخالقين » عند رؤية جمال أو « سبحان
 الله » عند شعورك بروعة الجلال والكمال ، أو « حسبنا
 الله » عند ما يعتدى عليك ذوو الظلم والضلال ، أو « إنا لله
 وإنا اليه راجعون » عند ما تصاب في نفسك أو مالك أو ولدك
 أو « الحمد لله الذى أبعد عني الأذى وعافاني » بعد قضاء الحاجة ،
 أو باسمك ربى أنى وضعت جنبي وبك أرفعه فى أحب الساعات
 اليك » عند النوم ، أو « الحمد لله الذى أحيانى بعد ما ماتنى واليه
 النشور » عند اليقظة ، خير عند ربك من ذكر ألفاظ أو
 أورد أواحياء ليال مع كذا من الالفاظ والعبارات ، لان
 الله رب القلوب ورب المعانى ، يجب ان تشعر القلوب
 بمعانى ذكره وحبّه ، فتذكر الألسنة الفاظ هذه

١٠٣

المعاني ٢٢ . . . والغزالي نفسه قال ما يؤيد هذا المعنى اذ قال عند حديثه عن شروط الارادة ومقدمات الجاهدة وتدرج المريـد في سلوك سبيل الرياضة ، ان المريـد اذا قال مثلاً الله الله أو سبحان الله سبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات « فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الاثر على اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى يمحي عن القلب ، وف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالباً عليه قد فرغ عن كل ما سواه » .

وسنرى في الفصل الآتي أن محبة الله العبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه ، وأما محبة العبد لله فهو ميله الى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له ، وعلامة محبة الله للعبد ان يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره .

الفصل الرابع

حب الله

٢٢ - اسباب الحب : ويقول الفزالي انه لا يتصور محبة الا بعد معرفة وادراك ، اذا لا يجب الانسان الا ما يعرفه ، (والحب من خاصية الحى المدرك) ، وكل ما فى ادراكه من المدركات لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ومعنى كونه محبوبا ان فى الطبع ميلا اليه ، فان تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا . فالحب اذن ينقسم بحسب انقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذات ميل اليها ، فلذة العين فى الابصار وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الاذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى اللين والنعومة . ويقول الفزالي بوجود

حس سادس (به ندرك أعمال الصور الباطنة من خلال الخير)
 ويعبر عن هذا الحس اما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو
 البصيرة الباطنة ، و« البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر
 والقلب أشد ادراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل
 أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار ، فتكون لاحالة
 لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الالهية التي تجل
 عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم
 والعقل الصحيح اليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل لما في
 ادراكه لذة ، فلا ينكر اذا حب الله تعالى إلا من قعد به
 القصور في درجة البهائم فلا يجاوز ادراك الحواس أصلا . »
 ولكي يبين الغزالي تحقيق معنى محبة العبد لله تعالى
 بين لنا أسباب المحبة عموما ثم ذكر أدلة وجودها بل قوة
 هذه الأدلة في الله ، ونرى تسهيلا للقارىء أن نجتمع بين كل
 دليل وسببه :

فالغزالي يقول أن المحبوب الاول عند كل حي نفسه
 وذاته ، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا الى دوام وجوده

١٠٦

ونفرة عن عدمه وهلاكه (وهو لا يحب الموت والعدم المحض الا لمقاساة ألم في الحياة ، ومهما كان مبتلى ببلاء فحبوبه زوال البلاء) ، وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب (لان الناقص فاقد للكامل والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود هو هلاك بالنسبة اليه ، والهلاك والعدم ممقوت) فاذا المحبوب الاول للانسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه ، والانسان يحب هذه الاشياء لا لاعتيانها بل لارتباط حفظه في دوام الوجود وكماله بها (فيحب ولده لانه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، ويحب أقاربه وعشيرته لانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم) .

ومن عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله تعالى والى الله وبالله ، « فاذا كان حب الانسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى ، ومن

خلا عن هذا الحب فلانه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالفه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته وعسوماته .

وثاني أسباب الحب هو الاحسان ، فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب (اضطرارا لا استطاع دفعه) على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قد يحب الانسان الأجنبي الذي لأقربا بينه وبينه ولا علاقة ، وهذا اذا حقق يرى الغزالي أنه يرجع الى السبب الاول ، فان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الوصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتميأ الوجود ، الا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لان بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له (كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة الاعضاء والاستاذ الذي يكون سبب العلم) ، ولذا لا يجب لذاته تحقيقا بل لاحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال

١٠٨

زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد . ولو عرف الانسان حق المعرفة لعلم ان المحسن اليه هو الله تعالى فقط ، وان الاحسان من الناس غير متصور الا بالمجاز (فانه المحسن هو الذي اضطر المحسن اليك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعنة المرهقة الى الفعل ، - اما لغرض آجل وهو الثواب أو عاجل وهو المنة والاستسغار أو الثناء والصيت والاشتهار بالكرم والسخاء أو جذب قلوب الخلق الى الطاعة والمحبة - واما يده فواسطة يصل بها احسان الله اليك ، وصاحب اليد مضطر في ذلك ، ثم ان الله أنعم على العالمين احساناً اليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فانه يتعالى عن الاغراض) « فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف الا الله تعالى اذ الاحسان من غيره محال ، فهو المستحق لهذه المحبة وحده » . ثم ان الله هو المحسن الى الكافة والمتفضل على جميع اصناف الخلائق بايجادهم وتكليمهم وترفيهم وتنعيمهم ، فالحب لهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض .

وثالث أسباب الحب أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذى يوثق بدوامه (وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . وقضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها . والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية، وكذلك استلذاذا للنظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل) ، فان ثبت ان الله جميل كان لاحالة محبوبا عنده من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله جميل يحب الجمال » . والحسن الاغلب حسن الابصار وأكثر التفات الناس الى صور الاشخاص (من تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك) ، ويقول الغزالي ان هذا خطأ ظاهر « فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر،

وان كل شيء جماله وحسنه أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال ، وان كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر . ومن أمثلة جمال الصور الباطنة جمال العلم والقدرة والكمال : والله هو أجل المعلومات ، فاحسن العلوم وأشرفها معرفته ، وكل ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به ، فان كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو في نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى ، إذ معلوماته لانهاية لها ومعلومات الخلق متناهية . وكذلك القدرة إذ غاية الانسان أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس في بعض الامور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات والارض ، فلا قدرة له على ذرة منها ، وما هو قادر عليه من نفسه فليست قدرته من نفسه وبمنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق اسبابه والممكن له من ذلك ، فيستحيل

أن يجب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يجب الله تعالى لذلك. ولا يتصور كمال التقديس والتتزه الا للواحد الحق ، وأن كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخراً هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال الا بقدر ما أعطاه الله ، فهو المنفرد بالكمال المتزه عن النقص المقدس عن العيوب ، فهذا الوصف ان كان جمالاً وكمالاً محبوباً فلا تتم حقيقة الاله ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقاً بل بالاضافة الى ما هو أشد منه نقصاً (كالانسان بالاضافة الى الحيوان) ، فالجميل المطلق هو الله . فاذا ليس حب الانسان مقصوداً على من أحسن اليه بل المحسن في نفسه محبوب وان كان لا ينتهي قط احسانه الى المحب ، لان كل جمال حسن فهو محبوب ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة ، كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة .

وخامس اسباب الحب (اذ رابعها هو لذة جمال المعاني

والصور) هو المناسبة الخفية (تناسب الأرواح) بين الحب والمحبوب ، والتعارف والتناسب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع الى المشابهة في الصور والاشكال بل الى معان باطنة ، هي قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالاعتداء والتخلق باخلاق الربوبية وذلك في اكتساب محامد الصفات ، على ان الروح أمر رباني « قل الروح من أمر ربي » ، « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي » وقد خلق الله سبحانه آدم على صورته كما رمز النبي صلى الله عليه وسلم (حتى ظن القاصرون ان لاصورة الا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا) وهذا هو أعظم اسباب الحب وأقواها .

٤٥ - المستحق للمحبة هو الله ومعه : ويقول الغزالي

انه لو اجتمعت أسباب الحب في شخص واحد ، تضاعف الحب لاحالة ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فان كانت هذه الصفات

في أقصى درجات الكمال ، كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه ، لأنها مجتمعة في حقه تعالى بمجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وهي حقيقة في حقه ووجودها في حق غيره وهم وتخييل ومجاز محض لا حقيقة له .

٤٦ - لذة معرفة الله : ويقول الغزالي ان اللذات تابعة للادراكات ، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذتها في نياها لمقتضى طبعها الذي خلقت له ، ويقول ان كذلك في القلب غريزة (تسمى النور الالهى أو نور الايمان واليقين يدرك القلب به المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة) مقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها (وتختلف باختلاف نوع العلم وشرفه ، وشرفه بقدر شرف المعلوم) . ويخرج الغزالي من ذلك بأن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات (من لذة الشهوة ولذة سائر الحواس الخمس) ، فان اللذات مختلفة بالانوع (كمخالفة لذة الواقع للذة السماع) وبالضعف والقوة (كمخالفة لذة النظر الى

الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر الى مادونه في الجمال)
وانما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها
(كأن أرى النظر الى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها ألد من
استنشاق روائح طيبة لانها مؤثرة عندى) ، وأن اللذات
إما ظاهرة (كلذة الحواس) وإما باطنة (كلذة الكرامة
والعلم) ، والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من
اللذات الظاهرة ، فلذة معرفة الله تعالى ألد من الرياسة التى
هى أعلى اللذات الباطنة الغالبة على الخلق .

٤٧ - ويقول الغزالي ان المدركات تنقسم الى ما يدخل
فى الخيال (كالصور المتخيلة والأجسام المتلوثة والتشكيلة من
أشخاص الحيوان والنبات) والى ما لا يدخل فى الخيال (كذات
الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالارادة) ، ومن رأى انسانا ثم
غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر اليها
ولكن اذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع
التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون
موافقة للمتخيلة وانما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ،

فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا، فالخيال
اول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية
الكشف (لالانه فى العين بل لانه ادراك كامل) . ولمعرفة
وادراك المعلومات التى لا تتشكل فى الخيال درجتان احدهما
اولى والثانية استكمال لها ، وبين الأولى والثانية من التفاوت
فى مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئى فيسمى
الثانى ايضا بالاضافة الى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية فلا بد
من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، ولم ترفع كان الادراك
الحاصل مجرد التخيل : فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن
النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات
وما غلب عليها من الصفات البشرية : فانها لا تنتهى الى المشاهدة
واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال ، بل هذه الحياة حجاب
عنها بالضرورة ، فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة
بكوارث الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة ،
فنها ماتراكم عليه الخبث والصدأ وهؤلاء هم المحجوبون
عن ربهم أبدا الآباد ، ومنها ما لم ينته الى جسد الرين والطبع

ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيـل فيعرض على النار
 عرضا يجمع منه الخبث الذى هو متدنس به ، فاذا اكمل
 الله تطهيرها وتزكيتها يتجلى له الحق سبحانه وتعالى تجليا
 يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى علمه كانكشاف تجلى
 المرأة بالاضافة الى ماتخيله ، وهذه المشاهدة والتجلى هى
 التى تسمى رؤية (من غير تخيل وتصور وتقدير شكل
 وصورة) ، ولا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون
 فى الدنيا (والتجلى على درجات متفاوتة كالـ معرفة) ، فـما صحبه
 من المعرفة هو الذى يتمتع به بعينه فقط إلا أنه يتقلب
 مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف
 لذة العاشق اذا استبدل بـخيال صورة المعشوق رؤية صورته
 فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر
 معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة « والذين آمنوا أشد
 حبا لله » .

٤٨ - وأصل حب الله لا ينفك عنه مؤمن لانه
 لا ينفك عن أصل المعرفة ، ولكن يرى الغزالى ان العبد

يكتسب حب الله تعالى في الدنيا واستيلاءه حتى ينتهي الى
العشق بسبين : قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من
القلب « وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ، وان
الواصلين للمعرفة ينقسمون الى الاقوياء ويكون أول معرفتهم
لله تعالى ثم به يعرفون غيره ، والى الضعفاء ويكون أول
معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل .

٤٩ - وأظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى
وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها
الى الافهام وأسهلها على العقول ، يشهد له بالضرورة كل
ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة ، بل أول
شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا
وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا وحركاتنا وسكناتنا . ويرى
الغزالي أنا نرى الأمر غير ظاهر لانهار العقول ودهشتها
عن ادراكه ، لان ما تنقص عن فهمه عقولنا له سببان :
خفاؤه في نفسه وغموضه وتناهي وضوحه ، إذ عقولنا ضعيفة
وجمال الحضرة الالهية في غاية الاشراف والاستنارة وفي

غاية الاستغراق والشمول ، فصار ظهوره سبب خفائه ،
ومن قويت بصيرته لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ،
فيعلم أن ليس في الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته
فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وانما الوجود للواحد
الحق الذي به وجود الافعال كلها ، ومن هذا حاله فلا ينظر
في شيء من الافعال إلا ويرى الفاعل ويذهل عن الفعل
فكل العالم تصنيف الله فنظر اليه وعرفه وأحبه من
حيث أنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله
ولا محبا إلا له وكان هو الموحّد الحق الذي لا يرى إلا الله .

•• - معنى الشوق الى الله : كل محبوب يشتاق اليه
في غيبته لاحالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق اليه ، فان
الشوق طلب وتشوف الى أمر ، والموجود لا يطلب ، ولكن
الشوق لا يتصور الا الى شيء ادرك من وجه ولم يدرك
من وجه (وأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق اليه ، فان لم ير
شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق اليه) وما أدرك
بكماله لا يشتاق اليه . وكمال الادراك بالرؤية : فن كان في

مشاهدة محبوبة مداوما للنظر اليه لا يتصور أن يكون له شوق (فن غاب عنه معشوقه مثلاً و بقي في قلبه خياله فيشتاق الى استكمال خياله بالرؤية ، فلما عحي عن قلبه ذكره و خياله و معرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق اليه ولورآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية ، وكذلك من يعلم ان لمحبوبه عضوا و أعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق الى ان ينكشف له ما لم يراه قط) . و يقول الغزالي ان الوجهين جميعا (استكمال الوضوح ونهاية المعرفة) متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فان ما اتضح للعارفين من الامور الالهية وان كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق ويكون مشوبا بشوائب التخيلات وينضاف اليها شواغل الدنيا ، وكمال الوضوح بالمشاهدة وتتمام اشراق التجلي ولا يكون ذلك الا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق (وذلك ينتهي في الدار الآخرة باللقاء والمشاهدة) ثم ان الامور الالهية

لأنهاية لها فتبقى أمور لانهاية لها غامضة ، فيتشوق العارف الى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة (وهذا الشوق لانهاية له في الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لان ذلك لانهاية له) .

٥١ - معنى محبة الله للعبد : قال الله تعالى « يحبهم ويحبونه » ، وقد اشترط للمحبة غفران الذنب فقال « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ويقول الغزالي ان الوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع ، فكان استعمال لفظ الحب في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل ، والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى موافق ملامم وهذا انما يتصور في نفس ناقصة فان ماوافقها تستفيد بنيله كما لا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى ، فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن

١٢١

في حق الإلهية ، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، فهو
إذا لا يجب الانفسه وماورد من الالفاظ في حبه لعباده
فهو مؤول ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلب العبد
حتى يراه بقلبه والى تمكينه إياه من القرب منه والى ارادته
ذلك به في الأزل ، وقرب كل واحد من الله بقدر كماله ،
وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينهى إلا لحد
محدود ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً
لاجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

٥٢ - عرومات محبة العبد لله : ويقول الغزالي ان ثمار
المحبة تظهر في القلب واللسان والجوارح ، وهي كثيرة منها :
حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام
وأن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره
وباطنه ، وأن لا يكون له تنعم بغيره ، وأن يجتنب اتباع
الهوى (والمعصية لا تخرجه عن الحب ولكن تخرجه عن
كماله) ، وأن لا يفتر لسانه عن ذكر الله ولا يخلو عنه قلبه
وذكر ما يتعلق به من كلام ورسول وما ينسب إليه ، وحب

١٢٢

جميع الخلق لانهم خلقه ، وأن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته
 لله تعالى وتلاوة كتابه ، وأن لا يطمئن إلا بالله « ألا بدكر
 الله تطمئن القلوب » ، وأن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى
 الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن
 ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالتوبة ،
 وأن يستقبل كل شيء بالرضى ويدكر قوله تعالى « وعسى
 أن نكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ، وأن يتنعم بالطاعة
 (ولا يستنقلها) ويسقط عنه تعبها ، وأن يكتم الحب ويحجب
 الدعوى ويتوقى من اظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب
 واجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره ، وأن يأنس بالله
 ويرضى بكل حكم نازل . وقد يظن أن الخوف يضاد الحب
 وليس كذلك ، بل ادراك العظمة يوجب الهيبة كما أن
 ادراك الجمال يوجب الحب ؛ ولخصوص المحبين مخاوف في
 مقام المحبة ليست تغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض ،
 فأولها خوف الاعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد
 منه خوف الابعاد والمقت .

٥٣ - معنى الانس بالآله : ويقول الغزالي أن
الانس والخوف والشوق من آثار المحبة ، الا أن هذه آثار
مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يغلب عليه في
وقته « فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى
منهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال
انبعث القلب الى الطلب وانزعج له وهاج اليه وتسمى هذه
الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى أمر غائب ، واذا
غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل
من الكشف وكان نظره مقصور اعلى مطالعة الجمال الحاضر
المكشوف غير ملتفت الى ما لم يدركه بعد استبشر القلب
بما يلاحظ فيسمى استبشاره انسا، وأن كان نظره الى صفات العزو
الاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعده تألم القلب
بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا . ويقول الغزالي ان علاقة
الانس الخاصة ضيق الصدر من معايشة الخلق والتبرم بهم
فان خالط فهو كمنفرد فى جماعة وحاضر فى سفر وغائب فى
حضور ، يخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر .

٥٤ - الرضى بقضاء الله : وقد قال تعالى « رضى الله

عنهم ورضوا عنه » ، ويقول الغزالي ان الرضى ثمرة من ثمار المحبة ، والحب يورث الرضى بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : (١) أن يبطل الاحساس

بالألم حتى يجرى شأيه المؤلم ولا يحس ، فالعاشق المستغرق الهم بشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يفتن به لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه ، هذا اذا أصابه من خير حبيبه فكيف اذا أصابه من حبيبه ، واذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال .

أو (٢) أن يحس ويدرك

ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له بعقله وان كان كارها بطبعه (فن يسافر في طلب الريح يرضى بمسقة السفر ، وهو هناموقن بأن ثوابه الذى أدخر له فوق ما فاته) . ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب

في مراد محبوبه ورضاه لالغني آخر ورائه (فما ظنك بقلوب
وقعت بين جمال الله وجلاله ١٤) .

٥٥ - ويقول الغزالي ان الدعاء غير مناقض للرضى

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضى وكذلك كراهة المعاصي
ومقت أهلها ومقت أبوابها والسعي في ازالتها بالامر بالمعروف
والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا ، لأن الله تعبدنا بهما .
وقد التبس هذا على قوم حتى رأوا السكوت على المنكرات
مقاما من مقامات الرضى وصموه حسن الخلق وهو جهل
محض ، بل الرضى والكراهة يتضادان اذا تواردا على شيء
واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد
في شيء واحد أن يكره وجه ويرضى به من وجه ، فكذلك
المعصية لها وجهان : وجه الى الله تعالى من حيث أنه فعله
واختياره وارادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك
الى ملاك المالك ورضى بما يفعله فيه ، ووجه الى العبد من
حيث أنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممتوتا عند الله
وبغيضا عنده حيث ساط عليه أسباب البعد والمقت فهو

من هذا الوجه منكر ومذموم . ويقول الغزالي ان هذا كله مستمد من سر القدر الذى لا رخصة فى افسائه ، وهو ان الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والارادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى ، فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضى والكراهة فهو أيضا مقصر . وبهذا يعرف أيضا ان الدعاء بالمغفرة وسائر الاسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضى بقضاء الله تعالى ، فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف . ويقول الغزالي ان الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح فى الرضى إذ أنه ليس فرارا من القضاء ، بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه . فمن الافضل رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمته ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله .. صاحب الرضى أفضلهم لانه أقلهم فضولا .

الفصل الخامس

مراقبة الله

٥٦ - المحاسبة والمراقبة : قال تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ، وقال « فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ويقول الغزالي ان مطلب العقل وربحه تزكية النفس « قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها » ، وهو يحتاج الى مشارطتها أولا فيرشدها الى طرق الفلاح ويجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ثم بعد الفراغ ينبغى ان يحاسبها . والمحاسبة تكون تارة بعد العمل وتارة قبله للتحذير ، ومعناه وزن الامور اولا وتقديرها والنظر فيها بتدبر ثم الاقدام عليها فباشرتها ، ولا يبقى بعد

ذلك الا المراقبة للنفس عند الخوض في الاعمال وملاحظتها
 بالعين الكذبة فانها ان تركت طغت وفسدت « ان الله كان
 عليكم رقيبا » .

٥٧ - ويقول الغزالي ان حقيقة المراقبة هي ملاحظة
 الرقيب وانصراف الهم اليه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة
 للقلب يشمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا في
 الجوارح وفي القلب ، أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب
 واشتغاله به والنفاته اليه وملاحظته إياه وانصرافه اليه ،
 وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على
 الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل
 نفس بما كسبت . والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم
 ينقسمون الى الصديقين والى أصحاب اليمين ، فمراقبة
 الصديقين هي مراقبة التعظيم والاحلال وهو أن يصير القلب
 مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال فلا يبقى فيه متسع للالتفات
 الى الغير أصلا ، وهذه مراقبة مقصورة على القلب ، أما
 الجوارح فانها تتعطل عن التلفت الى المباحات فضلا عن

المحظورات واذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها
 فلا يحتاج الى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد
 والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هما
 واحدا فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانها لا تتحرك
 إلا بما هو فيه . أما الورعون فهم قوم غلب يقين اطلاع
 الله (على ظاهريهم وباطنيهم) على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم
 ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة
 للتلطف الى الاحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال
 لا تخلو عن المراقبة ، وقد غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون
 ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، فانهم يرون الله في الدنيا
 مطلما عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيامة ، ومن كان في
 هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته
 وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته (بأن يسأل نفسه
 لم ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟) عندهم بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف
 عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى
 فيمضيه أو هو لموى نفس فيتقيمه ويخرج القلب عن الفكر

فيه وعن الهم به (فان الخطرة الاولى في الباطل اذا لم تدفع
أورثت الرغبة، فالهم، فجزم القصد، فالفعل، فالبور والمقت).
ويقول الغزالي ان العبد لا يخلو اما أن يكون في طاعة أوفى
معصية أوفى مباح، فراقبته في الطاعة بالاخلاص والاكمال
ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات، وان كان في معصية
فراقبته بالتوبة والندم والافلاع والحياء والاشتغال بالتفكر،
وان كان في مباح فراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود النعم
في النعمة وبالشكر عليها والصبر على البلية.

٥٨ - ويقول الغزالي ان العبد كما يكون له وقت
في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق،
فيذبح أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس
وبحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، فيحاسبها على الفرائض
أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في
متلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وان أداها ناقصة
كلفها الجبران بالنوافل، وان ارتكب معصية اشتغل
بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط،

وينبغي أن يتق غيضة النفس ومكرها فليطالبها ألا بتصحیح
الجواب عن جميع ما نسكلم به طول النهار ، وهكذا عن نظره
بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه
ونومه حتى عن سكوته لم سكوت؟ وعن سكونه لم سكون؟
فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى
الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على
نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه ، فاذا حصل
ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ، ثم ينبغي أن يحاسب
النفس على جميع العمر يوما فيوما وساعة فساعة في جميع
الاعضاء الظاهرة والباطنة ، فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه
على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة .
ويقول الغزالي أنه مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن
مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى ، فلا
ينبغي أن يهملها فانه ان أهملها عسر عليه فطامها وكان ذلك
سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقب كل طرف من
أطراف بدنه بمنعه عن شهواته .

٥٩ - النية والارادة والقصد والصريح : ويقول الغزالي ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل ، العلم يقدمه لانه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه ، وذلك لان كل عمل (حركة وسكون اختياري) لا يتم الا بثلاثة أمور علم وارادة وقدرة ، لانه لا يريد الانسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد ، فاذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة وتحقق الميل (فعنى الارادة انبعثت القلب الى ما يراه موافقا للغرض أما في الحال أوفى المآل) واذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضاء ، والنية عبارة عن الصفة المتوسطة (وهى الارادة وانبعثت النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو موافق للغرض اما في الحال واما في المآل) فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي ، والانبعث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك

الاعضاء هو العمل ، إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون
 بياث واحد (خالص عن مشاركة غيره وممازجته) وقد
 يكون بياثين اجتماعي فعل واحد ، وإذا كان بياثين فقد
 يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانتهاض القدرة
 (وهذا مرافقة للبواث) وقد يكون كل واحد قاصر عنه
 إلا بالاجتماع (وهذا مشاركة في البياث) وقد يكون
 أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتمض عاضدا له
 ومعاوناً (وهذا معاونة للبياث) . فالعمل تابع للبياث عليه
 فيكتسب الحكم منه ، ولذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها
 تابعة لاحكامها في نفسها وانما الحكم للمتبوع .

٦٠ - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نية
 المؤمن خير من عمله » ، ويقول الغزالي ان معناه ان نية
 المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته
 والغرض ان للعبد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان
 والنية من الجملة خيرهما (لأن اعمال القلب على الجملة افضل
 من حركات الجوارح ، والنية ميل القلب الى الخير واراادته

١٣٤

له ، وغرضنا من الاعمال بالجوارح ان يعود القلب ارادة الخير ويؤكد فيه الميل ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى الغرض لانه متمكن من نفس المقصود ، فهم قلبه هو ميل الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدھا تأكيذا .

ويقول الغزالي ان الاعمال وان انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك ، فهى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات : (١) المعاصى : وهى لا تتغير

عن موضعها بالنية ، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « انما الاعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية (كمن يبنى مسجدا بمال حرام) ، إذ النية لا تؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية ، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب

العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات انما يعرف كونها خيرات
 بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ؟ هيئات
 ولكن للنية دخل فيها وهو أنه اذا انضاف اليها قصد خيئة
 تضاعف وزرها وعظم وبالها . (٢) الطاعات: وهي مرتبطة
 بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضاها ، أما الأصل
 فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا ذير (فان نوى الرياء
 صارت معصية) ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات
 الحسنة ، فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات
 كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة
 ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها (٣) المباحات : وما من
 شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن
 القربات وينال بها معالي الدرجات (فالطيب مثلا مباح
 ولكن هل يقصد به التمتع بلذات الدنيا أو اظهار التفاخر
 بكثرة المال أو يقصد به رياء الخلق فيذكر بطيب الرائحة
 أو ليتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا
 للنظر اليهن ولا أمور أخرى لا تحصى ، وكل هذا يجعل

التطيب معصية الا القصد الأول وهو التلذذ والتنعيم فإن ذلك ليس بمعصية الا أنه يسأل عنه . وأما النيات الحسنة فإن ينوى به اتباع السنة يوم الجمعة وتعميم المسجد فلا يدخله إلا طيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا بروائحهم ودفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي الى اذناء مخالطيه وأن يحسم باب الغيبة عن المغتابين بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر

٦١ - ويقول الغزالي « أن النية ليست حديث نفس أو حديث لسان أو فكر أو اعتقاد من خاطر الى خاطر بل هي انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ما ظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا ، والميل اذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة ، اذ لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه الا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وانما تنبعث النفس الى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق

للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الانسان أن غرضه منوط
 بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر
 على اعتقاده في كل حين واذا اعتقد فاعما يتوجه القلب اذا
 كان فارغا غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك
 لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها أسباب
 كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال
 وبالاعمال . والنية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية
 وهي روح العمل والعمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو
 سبب مقت لا سبب قرب ، وهي ليست قول القائل بلسانه
 نويت بل هو انبعاث القلب .

ونيات الناس في الطاعات أقسام اذ منهم من يكون
 عمله اجابة لباعث الخوف (اتقاء النار) ومنهم من يعمل
 اجابة لباعث الرجاء (الرغبة في الجنة) ، وأما عبادة ذوات
 الألباب فانها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباله
 وجلاله ، وثواب الناس بقدر نياتهم . ويقول الغزالي من
 حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى

١٣٨

وانتقلت الفضيلة اليه وصارت الفضيلة في حقه تقيصه لان
الاعمال بالنيات (وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في
الظلم ، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون
ذلك أفضل) .

٦٢ - ويقول الغزالي ان كل شيء يتصور أن
يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سعى خالصا
ويسمى الفعل المصفي المخلص اخلاصا ، والاخلاص يضاد
الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك « وما أمروا إلا ليعبدوا
الله مخلصين له الدين » . والاخلاص وضده يتواردان على
القلب فحله القلب وانما يكون ذلك في القصود والنيات ،
ومهما كان الباعث واحدا على التجرد سعى الفعل الصادر
عنه اخلاصا بالاضافة الى المنوى ، ولكن العادة جارية
بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى
عن جميع الشوائب . فمن انبعث لقصد التقرب ولكن
امتزج بهذا الباعث باعث آخر اما من الرياء أو من غيره
من حظوظ النفس فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج

من أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك
(الخفى) . والباعث النفسى (حظوظ دنيوية وشهوات تستريح
اليها النفس ويميل اليها القلب) اما أن يكون مثل الباعث
الدينى أو أقوى منه أو أضعف ، والاخلاص تخليص العمل
عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه
قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء وهذا لا يتصور
الا من محب لله مستغرق اللهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب
الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الاكل والشرب أيضا بل
تكون رغبته فيه كرهبته فى قضاء الحاجة من حيث أنه
ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لانه طعام بل لانه يقويه
على عبادة الله .

٦٣ - ويقول الفزالى ان أظهر مشوشات
الاخلاص الرياء وأن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها
جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى
مع الخفاء ، وان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى
بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس كان مشوباً،

١٤٠

فاذا كان لم يرد به الا الرياء فهو عليه قطعاً وهو سبب المقت والعقاب ، أما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب ، والمشوب يدل ظاهر الاخبار على أنه لا ثواب له ، وبرى الغزالي ان ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوماً وتساقطاً وصار العمل لاله ولا عليه ، وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومنهض للعقاب الاقل من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب ، وان كان قصد التقرب أغلب بالاضافة الى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، فلا ينبغي أن يضع قصد الخير بل ان كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة ، وان كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد . ويقول الغزالي تفسيراً لهذا « ان الاعمال تأثرها في القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات وأما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على

١٤١

وفقها ، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان ،
فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، وإذا
كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك
الصفة ، وأحدهما مهلك والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا
بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستمضر بالحرارة إذا
تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته
فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وإن كان أحدهما
غالب لم يخل الغالب عن أثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من
الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن أثر في الجسد
بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير
والشر ولا ينفك عن تأثير في انارة القلب أو تسويده وفي
تقريبه من الله أو ابتعاده ، وفي الحديث « اتبع السيئة الحسنة
تبعها » فإذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقبيه ،
فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة . ومع هذا
فيقول النزالى انه لا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة
والرياء ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك

العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعاً .

٦٤ - وقال الله تعالى « رجال صدقوا ما عاهدوا

الله عليه » ويقول الغزالي ان لفظ المصدق يستعمل في ستة معان :

(١) صدق في القول : وهذا هو صدق اللسان ولا يكون الا في الاخبار أو فيما يتضمن الاخبار وينبئ عليه ، والخبر إما ان يتعلق بالماضي أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ، ولكن لهذا الصدق كمالان أحدهما : الاحتراز عن المعارض لانها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه ، الا ان ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراه وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق ويقتضيه الدين ، فاذا نطق به فهم

صادق وان كان كلامه مفهما غير ماهو عليه ، لان الصدق مأريد لذاته بل للدلالة على الحق والدماء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب ، والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية واردة الخير ، فهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقا (مبالغة في الصدق) كيفما كان لفظه ، ثم التعريض فيه أولى . والكمال الثانى أن يراعى معنى الصدق فى الفاظه التى ينجى بهاربه كقوله «وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض» فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب ، وكقوله اياك نعبد (٢) صدق فى النية والارادة : ويرجع ذلك الى الاخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله تعالى ، فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا

(٣) صدق العزم: فإن الانسان

قد يقدم العزم على العمل (فيقول مثلاً في نفسه ان رزقي الله مالا تصدقت بجميعه أو بشرطه) ، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن الهمام والقوة . فالصادق هنا هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولاضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات . (٤) صدق في الوفاء بالعزم : ومراتب الصديقين في العزائم تختلف ، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة ، فإذا حققت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه (٥) صدق في تحقيق العمل وهو صدق في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا ندل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك

الاعمال ولكن بأن يستجر الباطن الى تصديق الظاهر
(بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره) .
(٦) صدق في تحقيق مقامات

الدين كلها : وهو أعلى الدرجات وأعزها كالصدق في الخوف
والرجاء والتعظيم والنوكل والحب وسائر هذه الامور
(فان الصدق في تمام حقيقةها لا في ظهورها فحسب ، وقد
يكون للعبد صدق في بعض الامور دون بعض ، والصدق
من كان صادقا في الجميع مع اختلاف في الدرجات)

٦٥ - مراقبة الله في الحياة الدنيا : وقال تعالى
« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » ،
ويقول الغزالي في ذم الغرور ان الغرور عبارة عن بعض أنواع
الجهل ، إذ الجاهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف
ما هو به ، والغرور هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى
ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان ، فمن اعتقد
انه على خير اما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة
فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم

١٤٦

مخطئون فيه وان اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدّها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق . ويقول الغزالي في ذم الدنيا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا ، والاشياء ثلاثة أقسام (١) للمعاصي والمحظورات وأنواع

التنعمات في المباحات وهي الدنيا المحضّة المذمومة فهي الدنيا صورة ومعنى (ولا يتصور أن يكون ذلك لله) (٢) ماصورته لله ويمكن أن يجعل

لغير الله وهو الفكر والذكر والكف عن الشهوات (فاذا جرى ترك الشهوة مثلاً سرّاً ولم يكن عليه باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهو لله ، وان كان الغرض منه حفظ المال أو الحمية لصحة البدن أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى) (٣) ماصورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فان كان القصد حفظ النفس فهو من الدنيا

وان كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه .
 فاذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة اليه لامر الآخرة
 ويعبر عنه بالهوى ، ويقول الغزالي « ان الخير أن لا يترك
 الانسان الدنيا بالكليّة ولا يقمع الشهوات بالسكينة ، أما
 الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج
 عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل
 شهوة بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شيء من الدنيا ولا
 يطلب كل شيء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من
 الدنيا ويحفظه على حد مقصوده » .

٦٦ - وقال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم
 أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك
 فأولئك هم الخاسرون » ، ويقول الغزالي عند بيان تفصيل
 آفات المال وفوائده ، ان المال مثل حية فيها سم وترياق ،
 ففوائده ترياقه وغوائه سمومه ، وأما فوائده الدينية فان
 ينفعه على نفسه اما في عبادة (كالاستعانة على الجهاد) أو في
 الاستعانة على عبادة (كالمطعم) ، وما يصرفه الى الناس من

١٤٨

صدقة ومروءة ووقاية عرض وأجرة استخدام، وما لا يصرفه الى انسان معين ولكن يحصل به خير عام (كبناء المساجد ودور المرضى) ، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة السقر والوصول الى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والاعوان والكرامة فى القلوب . وأما آفات المال فدينية ودنيوية أما الدينية (١) فان تبحر الى المعاصى وارتكاب الفجور

(فان الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد ، لان الانسان اذا استشعر القدرة على نوع من المعصية انبعثت داعيته ، فان اقتحم ما اشتهاه هلك ، وان صبر وقع فى شدة اذ الصبر مع القدرة أشد) (٢) انه يجبر الى التمتع فى المباحات،

وأحسن أحواله أن يتنعم بالديناو يمرن عليها نفسه فيصير التمتع مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنه ويجبر البعض منه الى البعض ، فاذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراءاة

والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الاخلاق الرديئة لينتظم
له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه ، فان من كثر ماله كثر
حاجته الى الناس ومن احتاج الى الناس فلا بد وأن يناققةهم
ويعصى الله في طلب رضاهم . (٣) يلزمه اصلاح ماله عن
ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ،
فان أصل العبادات وسرها ذكر الله والتفكير في جلاله وذلك
يستمدى قلبا فارغا (وصاحب الضيعة مثلا يمسى ويصبح
متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبة الخ . .) . فان كان
الانسان فقيرا فينبغي أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن
الخلق غير ملتزم الى ما في أيديهم ولا حريصا على اكتساب
المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة
من المطعم والملبس والسكن ويقتصر على أقله قدر أو أخسه
نوعا ويرد أملة الى يومه أو الى شهره ، فان تشوق الى الكثير
أو طول أملة فانه عز القناعة وتدنس لالحالة بالطمع وذل
الحرص وجره الحرص والطمع الى مساوى الاخلاق وارتكاب
المنكرات الخارقة للسروات ، ويقول الغزالي ان علاج هذا

العمل بالاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق (حيث لا يكثر خرجه ويتسع انفاقه) ، واذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الامل والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه وان لم يشته حرصه ، وأن يعرف مافي القناعة من عز الاستغناء ومافي الحرص والطمع من الذل (وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات) ، وأن يحذر عقله بين أن يكون على مشابة أراذل الناس أو على الاقتداء بالانبياء أعز أصناف الخلق عند الله . وان كان المال موجودا ، فيقول الغزالي أنه ينبغي أن يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل .

٦٧ - ويقول الغزالي في بيان حقيقة الفقر ان الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه ، أما فقد ما لا حاجة اليه فلا يسمى فقرا ، وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وكل موجود سوى الله تعالى فقير لانه محتاج الى دوام الوجود في ثاني الحال ، ودوام وجوده

مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ، فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد وجودهم بالدوام « والله الغني وأنتم الفقراء » ، ويقول الغزالي ان فقر العبد بالاضافة الى أصناف حاجاته لا ينحصر لان حاجاته لا تحصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل اليه بالمال ، وكل فاقده للمال فانما نسميه فقيرا بالاضافة الى المال الذي فقده اذا كان ذلك المفقود محتاجا اليه في حقه ، ثم يتصور أن يكون له ستة أحوال :

- (١) الاستثناء : وهو أن يستوى عنده وجود المال وفقده
- (٢) الزهد : هو أن يكون بحيث لو أتاها المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له وعترزا من شره وشغله
- (٣) الرضى : وهو أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاها
- (٤) القناعة : وهو أن يكون وجود المال أحب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه
- (٥) الحرص : وهو أن يكون تركه الطلب لمجزئه
- (٦) الاضطراب : وهو أن يكون واليماذ بالله ما فقده من المال مضطرا اليه

١٥٢

والغزالي يريد من ذكر تلك الحالات أن يمهّد لقوله
 أن الزهد في الدنيا أن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها
 فهو غاية الكمال وأن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال
 بالاضافة الى درجة الرضى والقانع والحريص ونقصان بالاضافة
 الى درجة المستغنى ؛ بل الكمال فى حق المال أن يستوى
 عندك المال والماء (وأنت محتاج الى كل منهما) ، وكثرة الماء فى
 جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته
 تؤذيك إلا فى قدر الضرورة ، فهكذا ينبغي أن يكون المال
 لأن الخبز والماء واحد فى الحاجة وانما الفرق بينهما فى قلة
 أحدهما وكثرة الآخر ، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره
 الذى دبر به العالم ، علمت ان قدر حاجتك من الخبز يأتيك
 لاحالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء .

ويقول الغزالي ان الفقير القانع افضل من الغنى الحريص
 المسك وان الغنى المنفق ماله فى الخيرات افضل من الفقير
 الحريص ، ويقول ان السؤال حرام فى الاصل وانما يباح
 بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة (لما اكمل

١٥٣

أو ملبس أو مسكن) فان كان عنها بد فهو حرام لانه إظهار للشكوى من الله تعالى ، وفيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى ، وانه لا ينفك عن ايداء المسئول غالباً لانه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه (و حد اباحة السؤال أن تعلم ان المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير الا في تعريف حاجتك - بان تكون مشرفاً على الهلاك ولم يبق لك سبيل الى الخلاص ولم تجد من يعطيك من غير كراهة واذى - فاما في تحريكه بالحياء واثارة دأعيتة بالحيل فلا) .

٦٨ - حقيقة الصبر: ويقول الغزالي ان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة (والهوى والكسل) ، فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ؛ ويقول ان الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى اطلاقين (١) العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر

(٢) ان يطلق على الاحوال المثمرة للاعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد الى ما ينفعه في الدنيا والآخرة (فبشكر) أو يضره فيهما (فيصبر) . والصبر ضربان ضرب بدني (كتحمل المشاق بالبدن) وهو اما بالفعل (كتعاطى الاعمال الشاقة اما من العبادات أو من غيرها) واما بالاحتمال (كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة) وذلك قد يكون محمودا اذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو صبر النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى (ويسمى عفة وضبط للنفس ، وشجاعة ، وحلما ، وسعة صدر ، وكتما للسر وزهدا ، وقناعة - بحسب نوع المصبور عليه) .

ويقسم الغزالي الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف تبعا لاحوال باعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى الى ثلاثة (١) صبر الصديقين المقربين : وهو أن يهزم داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر (٢) صبر الغافلين : أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة

باعت الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من
المجاهدة (٣) صبر

المجاهدين: وهو أن تكون الحرب سجالات بين الجندين فتارة له اليد العليا
وتارة لها عليه وهو ما ان يغلب جميع الشهوات أولا يغلب شيئا منها
أو يغاب بعضها دون بعض .

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر الى ما يشق على النفس
فلا يمكن الدوام عايشه الا بمجهود جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك
تصبرا، والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بآدنى تحمل على
النفس ويخص ذلك باسم الصبر واذا دامت التقوى وقوى التصديق
بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر وأورث ذلك مقام الرضى .

وينقسم الصبر باعتبار حكمه الى فرض (بالصبر عن المحظورات)
وتقل (بالصبر عن المسكاه) ومحرم (بالصبر على الاذى المحظور)
ومكروه (بالصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع) .

ويقول الغزالي ان جميع ما يلتقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من
نوعين: ما يوافق هواه (وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة
العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا)

وما لا يوافق (وهو ما يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصي وما لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب) أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في ازالته كالتدني من المأذى بانتقام) وهو محتاج الى الصبر في كل واحد منهما ، ومعنى الصبر على العافية أن لا يركن اليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التمتع واللذة والاهو واللعب وان يرعى حقوق الله في ماله بالانفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة لخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق وكذلك في سائر ما نعم الله به عليه ، وهذا العبر متصل بالشكر .

٦٩ - شكر الله : والشكر نصف الايمان ، ويقول الغزالي ان الشكر لله لا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم ، والوسائط مسخرات من جهته (وأنه الشاكر والمشكور إذ الشكل مصدره اليه واليه مرجعه ، وليس في لوجود ذيره إذ الوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقى موجودا ، فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود ذيره فهو قيوم ولا قيوم

إلا واحد) ، أى أنك لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل
منه ، فإن خالجتك ريب في هذا لم تكن عارفاً بالنعمة ولا
بالنعم ، فلا تفرح بالنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان
معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص
عملك ، ثم يقول الغزالي أن الحال المستمدة من أصل المعرفة
وهو الفرح بالنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، هو أيضاً
في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ، ولكن
إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه وشرطه أن يكون
فرحك بالنعم لا بالنعمة ولا بالانعام (فيبعد عن معنى الشكر
إذا كن النظر مقصوراً على الفرح بالنعمة من حيث أنها
لذيذة وموافقة لغرضه ، ويدخل في معنى الشكر الفرح
بالنعم لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي
تستحقه على الانعام في المستقبل) . ويقول الغزالي أن العمل
بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم يتعلق بالقلب
(بقصد الخير وإضماره لكافة الخلق) وباللسان (باظهار
الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه) وبالجوارح

(باستعمال نعم الله تعالى في طاعته والثوق من الاستعانة بها على معصية) .

ويقول الله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، ويقول الغزالي ان معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه ، ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والاخبار ، الثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار بادراك حكمة الله تعالى (الجلية أو الخفية) في كل موجود خلقه ، إذ ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكمة ، فكل من استعمل شيئا في غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله وعدل عن العدل ، (فتلا الدراهم والدنانير خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ، وعلامة معرفة المقادير مقومة للمراتب والحكمة أخرى وهي التوصل بهما الى سائر الاشياء لانهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ، ونسبتهما الى سائر الاموال

قسبة واحدة فمن ملكها فكأنه ملك كل شيء ، فكل من
عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود
بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فاذا من كنزهما فقد
ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما » والذين يكتزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب أليم » ، وكل من
اتخذ منهما آفة من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة لأن
الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب منها بهما في
حفظ المائعات عن أن تتبدد ، ولا يكفي الخزف والحديد في
المقصود الذي أريد به النقود ، وكل من عامل معاملة الربا
فقد كفر النعمة وظلم لانهما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما إذ
لا غرض في عينهما فاذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا
على خلاف وضع الحكمة وانما يجوز بيع أحد التقدين بالآخر
إذ أن أحدهما يخالف الآخر في مقصود التوصل إذ قد يتيسر
التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات
قليلًا قليلًا وأما بيع الدرهم بدرهم بمائته فجائز من حيث أن
ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل فيه تاجرو

صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء وإذا باع درهما بدرهم
مثله نسيئة فيجوز لانه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد
للإحسان .

ويقول الغزالي إن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب
ومؤثر فانه يسعى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة
الآخروية وكل سبب يوصل اليها ويعين اليها إما بواسطة
واحدة أو بواسطة ، ونسبة ما سواها نعمة وسعادة إما ملط
وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة
(والنعم إما نافعة في الدنيا والآخرة كحسن الخلق ، أو
نافعة في الحال ضارة في المآل كالتلذذ باتباع الشهوات ، أو
مؤلة في الحال نافعة في المآل كقمع الشهوات ، وتنقسم
الاسباب الدنيوية الى ما فعه أكثر من ضرره كقدر
الكفاية من المال والجاه والى ما ضره أكثر من فعه في
حق أكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع والى
ما يكافىء ضرره فعه ، وهذه أمور تختلف باختلاف
الاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال وإن كثر فينفقه

في سبيل الله ويصرفه الى الخيرات فيكون نعمة في حقه ،
ورب انسان يستنصر بالتقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له
شاكيا من ربه طالبا للزيادة فيكون بلاء في حقه . وتنقسم
الخيرات الى ما يؤثر لذاته ككلذة النظر الى وجه الله تعالى
وسعادة لقائه ، وما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته
كالدرام والدنانير لقضاء الحاجة ، وما يقصد لذاته ولغيره
كالصحة والسلامة . وتنقسم الخيرات باعتبار آخر الى
ما تدرك راحته في الحال وهو اللذيذ وما يفيد في المآل وهو
النافع وما يستحسن في سائر الاحوال وهو الجميل ، ولهذا
التقسيم ضربان مطلق اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة كالعلم ،
ومقيد جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض ، فالنافع قد
يكون مؤلما وقد يكون قبيحا وقد يكون نافعا من وجه
وضار من وجه وقد يكون ضروريا وقد يكون غير ضروري .
وتنقسم اللذات الى عقلية اختص بها كالعلم ، وبدنية إما مشتركة
مع بعض الحيوانات ككلذة الاستيلاء والغلبة أو مشتركة
مع جميعها (كلذة البطن والفرج) . وقسم الغزالي النعم تقسيما

حاويا لجامعها الى ماعى غاية مطلوبة لذاتها والى ماهى مطلوبة
 لاجل الغاية التى هى سعادة الآخرة ويرجع حاصلها الى أربعة
 أمور بقاء Lafناء له وسرور لاغم فيه وعلم لاجهل معه وغنى
 لا فقر بعده وهى النعمة الحقيقية . وقسم الوسائل الى الاقرب
 الاخص كفضائل النفس والى مايليه فى القرب كفضائل
 البدن من صحة وقوة وجمال وطول عمر ، والى مايليه فى
 القرب ويجاوز الى غير البدن كلاسباب المطيفة بالبدن من
 المال والاهل وكرم العشيرة ، والى مايجمع بين هذه الاسباب
 الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس (كتوفيق الله
 والرشد والتسديد والتأييد) . ويقول الغزالى أنه لم يقصر
 بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة عن معرفة النعم ،
 ثم أنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول
 بلسانه الحمد لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل
 النعمة فى انعام الحكمة التى أرادت بها وهى طاعة الله عز
 وجل ، فلا ينم من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتین
 الاغلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، أما الغفلة عن النعم

١٦٣

فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس يجهاهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون عليها لانها نعمة عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة ، ولا ترام يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، فان ابتلى واحد منهم ثم نجى ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال ، والنعمة في جميع الاحوال أولى بأن تشكر في بعضها ، فصار الناس لا يشكرون الا المال الذي يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى ، والعلاج أن ينظر الانسان الى من دونه وأن يعرف أن النعمة (ظاهرة أو باطنة) اذا لم تشكر زالت ولم تعد .

٧٠ - ويقول الغزالي انه يرجع الصبر في الدنيا الى

ما ليس ببلاد مطلقا بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور

أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ، والشئ الواحد قد يغم به من وجه (فيصبر عليه) ويفرح به من وجه آخر (فيشكر عليه) ، وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عاها (١) ان كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها فيشكر اذ لم يكن أعظم منها في الدنيا (٢) انه كان يمكن أن تكون

مصيبة في دينه ، (بكفر أو معصية أشد ، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وألم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ، فن اين تعلم أن خيرك أعصى منك ثم لعله قد أخرت عقوبته الى الآخرة وعجبت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله على ذلك ؟) (٣) مامن عقوبة الا وكان

يتصور ان تؤخر الى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المعصية فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلى ، ومن عجبت عقوبته في الدنيا فلا يداقب دنيا (٤) ان هذه المصيبة

والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لابد من وصولها

اليه وقد وصات ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه
نعمة (٥) ان ثوابها اكثر،

فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة من وجهين أحدهما الذي يكون
به الدواء السكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من اسباب
اللعب نعمة في حق الصبي، فكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء
حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان في
بعض الاحوال ، بل العقل الذي هو اعز الامور قد يكون سببا لهلاكه
، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخير الدينية ويشكره
عليه . والوجه الثاني ان مواتاة النعم على وفق المراد من غير
امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب الى الدنيا واسبابها وأنسها
بها ، وأما التألم فضروري (والدواء النافع مؤلم) .

٧٨ - مراقبة الله في اللسان : وقد ذكر الغزالي في
آفات اللسان وجوب أن يتجنب الانسان الغفلة عن دقائق
الخطأ في فجوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط
بأمور الدين ، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن
الزلل ، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله (مثاله ما قاله حذيفة

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يقل أحدكم ما شاء الله
وشئت وليقل ما شاء الله ثم شئت » ، وذلك لان في العطف
المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام) ، وكذلك
يجب أن يتجنب العوام السؤال عن صفات الله تعالى وعن
كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة (لأن شأت
العوام الاشتغال بالعبادات والايمان بماورد به القرآن والتسليم
لما جاء به الرسل من غير بحث) ، وكذلك يجب على الانسان
أن يتجنب الكلام فيما لا يعنيه وفضول الكلام (الخوض
فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة) والخوض في
الباطل (وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء
ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الاغنياء وتجبر الملوك
ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، بل هو الخوض
في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للوصول اليها من
غير حاجة دينية الى ذكرها) والتقعر في الكلام بالتمشيق
وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات
والمقدمات وماجرت به عادة المتفاسحين المدعين للخطابة

وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف المحقوت ،
 والتنطع هو التعمق والاستقصاء ، بل ينبغي أن يقتصر في
 كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض
 وما راء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين
 ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب ، فان
 المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ،
 فلرشفة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، والغناء والشعر
 وانشاد الشعر ونظمه ليس بمحرام اذا لم يكن فيه كلام
 مستكره . وكذلك يجب مراقبة الله في آفات اللسان الاخرى ،
 فننلا يقول الغزالي ان علاج كف اللسان عن الغيبة هو أن
 يعلم أن تعرضه لسخط الله تعالى بها ، وأن يعلم أنها محبطة
 لحسناته فانها تنقلها في القيامة الى من اغتابه بدلا عما استباحه
 من عرضة ، فان لم تكن له حسنات نقل اليه من سيئات
 خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه
 عنده بأكل الميتة ، وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه فان وجد
 فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم

« طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ومهما وجد عيبا
 فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره بل
 ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك
 العيب (ان كان يتعلق بفعله واختياره) كمجزه ، وان
 كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق ، واذا لم يجد العبد عيبا
 في نفسه فليشكر الله تعالى ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه
 بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه ، وينفعه أن
 يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له .

٧٢ - مراقبة الله في الاكل والشرب : ونحن قوم
 نأكل لنعيش لانعيش لنا كل واذا أكلنا لم نشبع ، فلا ينبغي
 أن يكون هم الانسان الاكل والشرب بل يجب أن يجاهد
 نفسه بالجوع والعطش تبعاً للحديث الشريف ، ويقول الغزالي
 أنه يجب أن لا يأكل إلا حلالا ، لان العبادة مع أكل الحرام
 كالبناء على أمواج البحار ، وأن يكون الطعام بعد كونه
 حلالا في نفسه طيبا في جهة مكعبه « كلوا من الطيبات »
 موافقا للسنة والورع ، لم يكتسب بسبب مكروهه في الشرع

ولا يحكم هوى ومذاهنة في دين ، وأن ينوى بأكله أن
يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالاكل (ولا يقصد
التلذذ والتنعيم بالاكل) وأنت برضى بالموجود من الرزق
والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التمتع وطلب الزيادة
واتظار الادم ، وفي هذا وفضيلة الاكل للعيش أو كما يسميها
الغزالي فضيلة الجوع فهم صادق لمعنى الحياة الانسانية الحقة ،
وتجريد لها من غسة شهوة البطن المادية المشاركة لها البهائم
فيها ، اذ يرى الغزالي أن في مجاهدة الجوع والعطش صفاء
القلب وإيقاد القريحة وانفاذ البصيرة (لان الشبع يورث
البلاهة ويعبى القلب ويكثر البخار في الدماغ فيثقل القلب
عن الجريان في الافكار وسرعة الادراك) ، وبالجوع يرق
القلب ويصفو ويزول البطار « فلا تنكسر النفس ولا تذلل
بشيء كما تذلل بالجوع فعنده تسكن لربها وتقف على عجزها
وهذا إذ ضعفت منها وضاعت حيلتها بلقيمة طعام فاتها ،
وأظلمت عليها الدنيا بشربة ماء تأخرت عنه » ، وبه لا ينسى
بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء ، وبه كسر شهوات

المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الامارة بالسوء » فان
منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات
لا محالة الاطعمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة ، وانما
السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن
تلكد نفسه ، وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة
الكلام ، وبه يندفع النوم ويدوم السهر (لان من شبع
شرب كثيرا ومن أكثر شربه أكثر نومه) « وفي كثرة
النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة
القلب » ، وبه تيسر المواظبة على العبادة (لان الاكل يمنع
من كثرة العبادات لانه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالاكل
وشراء الطعام وطبخه وغسل اليد والخلال وكثرة التردد
الى بيت الماء لكثرة شربه) ، ويستفيد من قلة الاكل صحة
البدن ودفع الامراض « فان سببها كثرة الاكل وحصول
فضلة الاخلاط في المعدة والعروق ، ثم المرض يمنع من
العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينقص
العيش ويحوج الى الدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج الى مؤن

وفنقات ، ، وبالجوع وقلة الاكل تخفف المؤنة « فان من تعود
فلة الاكل كفاء من المال قدر يسير ، والذي تعود الشبع
صار بطنه غريما ملازما له وآخذا بمخنة في كل يوم فيقول
ماذا تأكل اليوم فيحتاج الى أن يدخل المداخل فيكنسب
من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل ، وربما يحتاج الى أن
يبدأ عين الطمع الى الناس ، ، وبقلة الاكل يتمكن من
الايثار والصدقة بما فضل من الاطعمة على اليتامى والمساكين
فيكون في يوم القيامة في ظل صدقته .

٧٣ - ويجعل الغزالي للاكل صفة اجتماعية منظمة فيرى
أن من آدابه أن يجتهد الانسان في تكثير الايدي على الطعام ولو
من أهله وولده . ويدل على احترام الغزالي للأكل ورفع له عن خسة
المأذية ذكره أن من الآداب التي تتقدم على الاكل « غسل اليد لان اليد
لا تخلو عن لوث في تعاطى الأعمال فعملها أقرب الى النظافة والزاهة
، ولان الاكل لتقصدا الاستعانة على الدين عبادة » ومن ذكره أن
من آداب حالة الاكل أن يبدأ بيسم الله في أوله ومحمد الله في آخره
ويأكل باليمنى (احتراماً له) ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة

ويجود مضغها ومالم يبتلعها لم يعد اليد الى الاخرى فان ذلك عجلة
 في الأكل ، ولا ينفخ في الطعام الحار بل يصبر الى أن يسهل اكله، وأن
 لا يكثر الشرب في أثناء الطعام الا اذا غص باقمة أو صدق عطشه
 (تنظيم له واتباعا للقواعد الصحية) وأن يأكل مما يليه الا الفاكة
 فان لا أن يجبل يده فيها ، ولا يجمع بين التمر والزوى في طبق ، ولا
 يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقها وكل
 ماله عجم وثقل وما استرذله من الطعام ، وأن لا يأكل من وسط
 الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف الا اذا قل الخبز فيكسر الخبز
 (احتراماً له ولكيلا يتأذى من يأكل معه) وازلا يذم مأكولاً فان
 أعجبه أكله والا تركه ، ولا يمسخ يده بالخبز (احتراماً للنعمة، حتى
 نه يغالى فيقول لا يقطع بالسكين ولا يقطع اللحم أيضاً، ونرى أن
 هذا لا يقلل من احترام النعمة بل يمكن القول به وضمه لاحترام
 الاكل وتنظيمه) ، ويراعى الغزالي هذه المعاني في الشرب فيقول
 أن أدبه أن يأخذ الكوز (القدح) بيمينه ويقول بسم الله ويشر به
 مصاً لآعبا ، ولا يشرب قائماً ولا مضطجعا ، ويراعى أستقل (القدح)
 حتى لا يقطر عليه وينظر فيه قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس فيه

بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية ، وكذلك يقول انه يستحب
بعد الطعام أن يمسك قبل الشبع ، ويتخلل ولا يبتلع ما يخرج من بين
أسنانه بالخلل بل يرميه ، وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما اطعمه فيرى
الطعام منة منه ، ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولاً .

٧٤ - مراقبة الله في النطق : ويقول الغزالي أن للنكاح
فوائد وآفات على العبد أن يوازن بينهما ويرجح الاصلح له
منهما ، فآفاته ثلاث : العجز عن طلب الحلال (لان المتزوج
في الاكثر يدخل مداخل السوء فيتبع هوى زوجته وبيع
آخزته بدنياه) ، والقصور عن القيام بحق الزوجة ، وأن
يكون الاهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له الى
طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للاولاد بكثرة جمع المال
واخباره وطلب التفاخر والتكاثر بهم (وكل ما شغل عن
الله من اهل ومال وولد فهو مشغوم على صاحبه) ، وأما فوائده
فخمسة :

(١) الولد : وهو الاصل

وله وضع النكاح ، والمقصود بقاء النسل وأن لا يخلو العالم
عن جنس الانس ، وانما الشهوة خلقت باعثة مستحثة

(كالتلطف بالطير في بث الحب الذي يشتهيه ليساق الى الشبكة) . ويقول الغزالي فيما يتعلق بالولد وجوب أن تكون المرأة ولودا (فان لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعى صحتها وشبابها فانها تكون ولودا في الغالب مع هذين الوصفين) ، وأن تكون نسيبة (أعني أن تكون من أهل بيت الدين والعصا) فانها ستربي بناتها وبنينها فاذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية) ، وأن لا تكون من القرابة القريبة ، فان ذلك يقلل الشهوة (وفي الحديث الشريف « لا تنكحوا القرابة القريبة » ، فان الولد يخلق ضاوياء أى نحينا وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة ، فان الشهوة انما تنبعث بقوة الاحساس بالنظر واللمس ، وانما يقوى الاحساس بالأمر الغريب الجديد) . (٢) التحصن عن الشيطان وكسر التوقان وغض البصر وحفظ الفرج : ويقول الغزالي عند كلامه فيما على المريد في ترك التزويج وفعله أن المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل قلبه ونفسه بالتزويج فان ذلك يستجره الى الانس بالزوجة ، ومن أنس بغير الله

تعالى شغل عنه ، فشرط المريد العزوبة في الابتداء الى أن
يقوى في المعرفة ، هذا اذا لم تغلبه الشهوة فان غلبته فليكسرهما
بالجوع الطويل والصوم الدائم ، فان لم تنقمع الشهوة بذلك
وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا وان قدر على حفظ
الفرج فالنكاح أولى له لتسكن الشهوة وكذلك اذا لم يحفظ
عينه اذ العين من كبار الصغائر وهو يؤدي على القرب الى
الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج ، وفي الحديث « لكل
ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان
تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشي ، والقم
تزني وزناها القبلة ، والقلب يهم أو يمتنى ، ويصدق ذلك الفرج
أو يكذبه » ، وان قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر
على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به ، فان الشرف في
الصبيان أكثر فانه لو مال قلبه الى امرأة أمكنه الوصول
الى استباحتها بالنكاح ، والنظر الى وجه الصبي بالشهوة
حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الامرء بحيث
يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر اليه ،

ويعرف ذلك بـميل النفس الى القرب والملازمة (ولو أن رجلا عبت بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لو اطا كما قال سفيان ، اذ اللوطيون كما قال بعض السلف ثلاثة أصناف : صنف ينظرون وصنف يصافحون وصنف يعااون)

ويقول الغزالي عند الكلام عن الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده : أن تكون خفيفة المهر (وكما تنكره المغالاة في المهر من جهة المرأة ، فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل ، ولا ينبغي أن ينكح طمعا في المال ، واذا تزوج وقال أي شيء المرأة فاعلم انه لص كما قال التوري) ، وان تكون حسنة الوجه اذ به يحصل التحصن والطبع لا يكتفى بالديممة غالبا ، كيف والغالب ان حسن الخلق والخلق لا يفترقان ، ويدل على معنى الجمال ان الالف والمودة تحصل به غالبا ، وقد ندب الشرع الى مراعاة اسباب الالف ولذلك استحب النظر ، ففي الحديث « اذا وقع الله في نفس احدكم من امرأة فلينظر اليها

فانه أحرى أن يؤدم بينهما « أى يؤلف بينهما من وقوع
الادمة على الادمة وهى الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة.

(٣) ترويح النفس وإيناسها

بالمجالسة والنظر والملاعبة وإراحة القلب وتقوية له على
العبادة . ويقول الغزالي أنه يحسن أن تكون المرأة حسنة
الخلق صالحة ذات دين ، فانه ان كانت ضعيفة الدين فى صيائة
نفسها وفرجها أذرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه
وشوشت بالغيرة قلبه وتنخص بذلك عيشه (وفى الحديث
« لا تنكح المرأة لجمالها ، فلعل جمالها يردىها ، ولا للمالها فلعل
مالها يطغىها ، وانكح المرأة لدينها » وهذا ليس زجرا عن
رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لاجل الجمال المحض
مع الفساد فى الدين ، فان الجمال وحده فى غالب الأمر يرغب
فى النكاح ويهون أمر الدين) ، وأن تكون بكرا (وقد
قال عليه السلام لجابر وقد نكح ثيبا ، هلا بكرا تلاعبها
وتلاعبك) .

ويجب على الولي أيضا أن يراى خصال الزوج لينظر لكريمته فلا يزوجه

١٧٨

الا برضاها ولا يزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام
بمحبها أو كان لا يكافئها في نسبها ، وينبغي أن يزوجها كما قال الحسن من يتق الله
، فان أحبها أكرمها وأن أبغضها لم يظلمها (٤) تفرغ القلب عن تدبير
المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف
الاولاد وتهئية أسباب المعيشة (٥) مجاهدة النفس ورياضتها
بالرأية والولاية والقيام بحقوق الالهل والصبر على أخلاقهن
واحتمال الاذى منهن والسعى في اصلاحهن وارشادهن الى
طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لاجلهن والقيام
بتربيتهن لا ولاده .

٧٥ - مراقبة الله في رياضة الصبيان : ويقول الغزالي

« ان الصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهره نفيسة
ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل
ما نقش ومائل الى كل ما يمال به اليه ، فان عود الخير وعلمه
نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه .
ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا ، فبان يصونه عن
نار الآخرة أولى وصيائمه بأن يؤدبه ويهذب ويعلمه محاسن

الاخلاق ويحفظه من القراء السوء ولا يعود التمتع ولا
 يجلب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها
 اذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول
 الأمر فلا يستعمل في حضائته وارضاعه إلا امرأة صالحة
 متدينة تأكل الحلال ، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي
 أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، ثم يشغل في
 المكتب (أو الروضة) ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل
 محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين
 أظهر الناس ، فان خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة
 فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتمك ستره ولا يكشفه ولا يظهر
 له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، فان عاد ثانيا
 فينبغي أن يعاقب سرا ويعظم الأمر فيه ، وينبغي أن يمنع
 عن كل ما يعمله في خفية فانه لا يخفيه الا وهو يعتقد أنه
 قبيح فاذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود في بعض النهار
 المشي والحركة والريضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ومنع
 من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء

من مطاعمه وملابسه بل يعود التواضع والا كرام لكل
 من عاشره والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ
 من الصبيان شيئا بداله حشمة ان كان من أولاد المحتشمين
 بل يعلم أن الرفعة في الاعطاء لافي الاخذ وأن الاخذ لثوم
 وخسة ودناءة ، وان كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع
 والاخذ مهانة وذلة وان ذلك من دأب الكلب فانه يصبص
 في انتظار لقمة والطمع فيها ، وينبغى أن يعرد أن لا يبصق
 في مجلسه ولا يمتخط ولا يتأدب بحضرة غيره ولا يستدر
 غيره ولا يضع رجلا على رجل ، « أى أن الغزالي يرى أن
 الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وانما أبواه يعيلان
 به الى أحد الجانبين ، فراقبة الله فيه الميل به للخير ، فلقد
 علم بن سوار بذلك ابن اخته سهل بن عبد الله التستري كيف
 يذكرك خالقه ، اذ قال له اذكركه بقلبك عند تقديك في ثيابك
 ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك « الله معي ، الله
 ناظر الى ، الله شاهدي » ثم زاد الى سبع مرات ثم الى احدى
 عشرة مرة ، فوقع في قلبه حلاوته ، فانتهز خاله شعوره بهذه

اللذة وقال له « من كان الله معه وناظر اليه وشاهده أيعصيه؟ ..
إياك والمعصية .. »

٧٦ - مراقبة الله في المعاملات المادية مع الناس :
صلة المعاملات المادية هي صلة لا يخرج انسان عنها إذ لا بدله
من نوع معاملة في سعيه لكسب عيشه ، ولما كان الله تعالى
قد قال في كتابه العزيز « كلوا من الطيبات واعملوا صالحا »
احتجنا لمعرفة أصناف الحلال ومداخله ومراتب الشبهات
ومشاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام ، وبين لنا ذلك
الغزالي في قوله ان المال انما يحرم لمعنى في عينه (كالخنزير
والخنزير وما يضر كالسم والقاذورات) أو خلل في جهة
اكتسابه ، فما يؤخذ من غير مالك (كنيل المعادف
والاصطياد) فحلال بشرط أن لا يكون المسأخوذ مختصا
بذى حرمة من الآدميين ، وأما المسأخوذ قهرا (كالغنيمة في
الحرب) فحلال اذا أخرج منها الخمس وقسم بين المستحقين
بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد ، وأما
ما يؤخذ قهرا باستحقاق عند امتناع من وجب عليه : فحلال

إذا تم سبب الاستحقاق واقتصر على القدر المستحق واستوفاه
 ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق ، وأما
 ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، فحلل إذا روعي شرط العوضين
 وشرط العاقدين وشرط اللفظين (الإيجاب والقبول مع
 ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة) وأما ما يؤخذ
 عن رضى من غير عوض ، فحلل إذا روعي فيه شروط
 المعقود عليه وشرط العائدين وشرط العقد ولم يؤد إلى
 ضرر بوارث أو غيره ، وأما ما يحصل بغير اختيار كالميراث
 فحلل إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض
 الجهات الخمس على وجه حلال .

٧٧ - درجات المحلل والمحرام : ويقول الغزالي أن

المحرام كله خبيث لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب
 ولكن بعضه أطيب وأصنى من بعض ، ولذلك قسم الورع عن
 المحرام على أربع درجات (١) ورع

العدل وهو ورع عن كل ما حرمه فتاوى الفقهاء وهو الذى يجب
 التمسك باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض

للنار بسببه

(٢) ورع

المصالحين وهو الامتناع عما يتطرق اليه احتمال التحريم ولكن

المفتى به يرخص في تناول بناء على الظاهر (٣) ورع

المتقين وهو ورع عما لا تحرمه الفتوى ولا شهوة في حله ولكن

يخاف منه أداؤه الى محرم (وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس

لان أكثر المباحات داعية الى المحظورات حتى استكثار الاكل

واستعمال الطيب للمتعزب فانه يحرك الشهوة (٤) ورع

الصديقين ، وهو الامتناع عما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن

يؤدى الى ما به بأس ، ولكن يتناول لغير الله على غير نية التقوى

به على عبادة الله أو تنطرق الى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية.

ويقول الغزالي ان الحديث الشريف « الحلال بين والحرام بين

وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد

استبرأ لرضه ودينه ، ومن وقع في الشبهات واقع الحرام كالراعى

حول الحمى يوشك أن يقع فيه » نص في اثبات الاقسام الثلاثة :

حلال مطلق (خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه، والنحل

عن أسبابه ، ما تنطرق اليه تحريم أو كراهية) وحرام محض (وهو

مافيه صفة محرمة لا يشك فيها (وشبهة) وهو ما اشتبهه علينا أمره
بان تعارض لنا فيه اعتقادان صدراعن سبيين مقتضيين للاعتقادين).

٧٨ - مراتب الشبهات ومثارها : ويقول الغزالي

ان مثارات الشبهة خمسة : (١) الشك في السبب

المحلل والمحرّم : فان تعادل الاحتمالان ، كان الحكم للماعرف

فيله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وان غلب أحدا الاحتمالين

عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ، وينقسم

هذا الى أربعة أقسام : (١) أن يكون التحريم

معلوما من قبل ثم يقع الشك في المحلل ، فهذه شبهة يجب

اجتنابها ويحرم الاقدام عليه (كأن يرى الى صيد فيجرحه

ويقع في الماء فيصادفه ميتا ولا يدري أنه مات بالفرق أو

بالجرح ، فهذا حرام لان الاصل التحريم الا اذا مات بطريق

معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك .

(ب) أن يعرف الحل

ويشك في المحرم ، فالاصل الحل وله الحكم .

(ح) أن يكون الاصل

التعريم ولكن طراً ما أوجب تحمليه بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله ، فهذا ينظر فيه فان استند غلبة الظن الى سبب معتبر شرعاً فالذى تختار فيه أنه بحل - اذ لا يدفع اليقين بالشك - واجتنابه من الورع (د) أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً ، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتعريم اذ الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن .

(٢) المتار الثاني للشبهة :

شك منشؤه الاختلاط وهذا ثلاثة أقسام (ا) أن تستبهم العين بعدد محصور (كما لو اختلطت الميتة بذكية) فهذه شبهة يجب اجتنابها بالاجماع لانه لا مجال للاجتهاد .

(ب) حرام محصور

بحلال غير محصور (كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد بل له أن ينكح من شاء منهن) (ح) أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر (كحكم الاموال في زمننا

هذا) فلا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه أنه حرام وأنه حلال ، الا أن يقترن بتلك العين علامة على أنه من الحرام ، فان لم يكن في العين هذه العلامة فتركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله (فلو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق في الدنيا حلال ، فاجاوز حده انعكس الى ضده ومهما حرم الشكل حل الشكل) وبرهان الغزالي أنه اذا وقعت هذه الواقعة فباطل أن يقال يدع الناس الاكل حتى يموتوا عن آخرهم ، وباطل قطعا أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرق ، وفاسد أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهه ، لانه رفع لسد الشرع بين المفسدين والفساد ، وتعطيل للتراضى أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعد من غير اقتصار على قدر الحاجة ، وتكليف وشطط وضياع للاموال أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة ، فلم يبق اذن الا الحل الذي رآه .

(٣) المتار الثالث للشبهة :

أن يتصل بالسبب المحلل معصية أماً في قرائنه وأماً في لواحقه
وأماً في سوابقه أو في عوضه ، وكانت من المعاصي التي
لا توجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل . ويضرب لنا
الغزالي مثلاً لكل فيقول ان مثال المعصية في القرائن البيع
في وقت النداء يوم الجمعة والبيع على بيع الغير . ومثال اللواحق
كل تصرف يفضي في سياقه الى معصية كبيع العنب من
الحمار والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل
عاص بعقده عصيان الاعانة على المعصية . وأما المقدمات
فلتطرق المعصية اليها ثلاث درجات (العليا تشتد الكراهة
فيها ما بقى أثره في المتناول كالأنكل من شاة علفت بعلف
مفصوب ، والوسطى كالامتناع عن طعام واصل على يد
سجّان ، والثالثة وهي تنطع كالامتناع من خلال وصل على
يد رجل عصي الله بالزنا أو القذف وليس هو كما لو عصي
بأكل الحرام) . والمعصية في العوض أيضاً ثلاث درجات
: العليا تشتد الكراهة فيها كأن يشتري شيئاً في الزمة
ويقضى ثمنه من غصب أو مال حرام ، فينظر فإن سلم اليه

البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء
 الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب ، فان قضى الثمن بعد
 الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ، فان قضى الثمن
 من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ،
 وان أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة . والوسطى
 أن لا يكون العوض غصبا ولا حراما ولكن يتهدى لمعصية
 كما لو سلم عوضا عن الثمن عنبا والآخذ شارب الخمر . والسفلى
 هي درجة الموسوسين وذلك أن يحلف انسان على أن لا يلبس
 من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوبا فهذا لا كراهية
 فيه والورع عنه وسوسة . (٤) المثار الرابع الاختلاف
 في الأدلة ، فان ذلك كالاختلاف في السبب ، لاز السبب
 سبب الحكم الحل والحرمة ، والدليل سبب لمعرفة الحل
 والحرمة ، فهو سبب في حق المعرفة ، وما لم تثبت في معرفة
 الغير فلا فائدة لثبوتها في نفسه وان جرى سببه في علم الله ،
 وهو اما أن يكون لتعارض أدلة الشرع (مثل تعارض
 عمومين في القرآن أو السنة أو تعارض قياسين وعموم ،

وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه الى الاستصحاب أو
الاصل المعلوم قبله ان لم يكن ترجيح ، فان ظهر ترجيح
في جانب الحظر وجب الاخذ به ، وان ظهر في جانب الحل
جاز الاخذ به ولكن الورع تركه) أو لتعارض العلامات
الدالة على الحل والحرمه (كتعارض شهادتي فاسقين أو قول
صبي وبالغ ، فان ظهر ترجيح حكم به والورع الاجتناب ،
وان لم يظهر ترجيح وجب التوقف) أو لتعارض الاشباه
في الصفات التي تناط بها الاحكام (كأن يوصى بعال للفقهاء
فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه ، ويذهب مادرجات لا تحصى
يقع الشك فيها ، فالمتى يفتى بحسب الظن والورع والاجتناب).

٧٩ - ويقول الغزالي أنه يجب استفتاء القلب
تبعاً للحديث الشريف « استفت قلبك ، وان افتوك
وافتك » ، ومن لم يثق بقلب نفسه فليتمس النور بقلب
العالم الموفق المراقب لدقائق الاحوال . فالغزالي يرى وجوب
أن لا يقتصر الانسان على اجتناب الحرام بل يتقى مواقع
الشبهات ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى بل يستفتي

قلبه فاذا وجد فيه حزازة اجتنبه ، واذا حمل اليه سلعة رابه
أمرها يسأل عنها حتى يعرف والا أكل الشبهة . فان كان
المتعامل تاجر او جب أن ينظر الى من يعامله ، فكل منسوب
الى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله وكذا الاجناد
والظلمة لا يعاملهم البتة ولا يعامل أصحابهم وأعوانهم لانه
معين بذلك على الظلم ، وفي الحديث ان الله ليغضب اذا مدح
الفاسق .

٨٠ — العمل في المعاملة : ويبين لنا الغزالي العدل
واجتناب الظلم في المعاملة فيقول (١) بوجوب ملاحظة ما يعم
ضرره : فالاحتكار ظلم عام وصاحبه مذموم في الشرع اذا
كان احتكارا للطعام (في حالة ادخار الطعام انتظارا لغلاء
الاسعار) ، وأما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت
كالادوية والعقاقير وأمثاله فلا يتعدى النهي اليه وان كان
مطعوما ، وأما ما يمين على القوت كاللحم والفواكه وما
يسد مسدا يغني عن القوت في بعض الاحوال وان كان
لا يمكن المداومة عليه فهذا في محل نظر . وترويح الزيف

من الدراهم في أثناء النقد ، فهو ظلم اذ يستضر به المعامل ان لم يعرف وان عرف سيروجه على غيره (٢) ما يخص ضرره المعامل ، فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم وانما العدل أن لا يضر بأخيه المسلم ، والضابط السكلي فيه أن لا ينجب لأخيه الا ما يحب لنفسه ، فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه ، فينبغي أن لا يعامل غيره به بل ينبغي أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره ، أما تفضيله ففي أربعة أمور :

(١) ترك الثناء : فان

وصفه للسلعة كان بما ليس فيها فهو كذب ، فان قبل المشتري ذلك فهو تليس وظلم مع كونه كذبا وان لم يقبل فهو كذب واستقاط مروأة ، وان أثني على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه ، الا ان يثني على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري ما لم يذكره ، ولا ينبغي أن يحلف عليه البتة .

(ب) ان يظهر جميع

عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتف منها شيئا فذلك واجب ، فان أخفاه كان ظالما فاشا (والغش حرام) وكان تاركا للنصح

في المعاملة . والنفس حرام في البيوع والصنائع جميعا ، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لوعامله به غيره لما ارتضاه لنفسه ، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ثم يبين عيبها ان كان فيها عيب فبذلك يتخلص (ح) أن لا يكتم في المقدار شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل ، قال الله تعالى « ويل للمطففين الذين اذا اكتبوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ، ولا يخلص من هذا الا بأن يرجح اذا أعطى وينقص اذا أخذ ، وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلمة ولا ينصف بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت المطففين .

(د) أن يصدق في

سعر الوقت ولا يخفى منه شيئا . (٣) الاحسان في

المعاملة : ويقول الغزالي ان رتبة الاحسان تنال بواحد من ستة أمور : (١) أن لا يغبن صاحبه

بما لا يتغابن به في العادة . (ب) والمشتري ان

اشترى طعاما من ضعيف ، أو شيئا من فقير ، فلا بأس أن

١٩٣

يحتمل الغبن ويتساهل ويكون به محسنا ، والكمال في أن
لا يغبن ولا يغبن (ح) في استيفاء الثمن
وسائر الديون والاحسان فيه مرة بالمساهمة وحط البعض
ومرة بالامهال والتأخير ومرة بالمساهلة في طلب جودة
النقد (د) في توفية الدين

ومن الاحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى الى
صاحب الحق ولا يكافه أن يمشى اليه يتقاضاه ، ومهما قدر
على قضاء الدين فليبادر اليه ولو قبل وقته وليسلم أجود مما
شرط عليه وأحسن ، وان عجز فلينو قضاءه مهما قدر ،
ومهما كمله صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله
باللطف ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض
فالاحسن أن يكون الميل الاكثر للمتوسطين الى من عليه
الدين ، فان المقرض يقرض عن غني والمستقرض يستقرض
عن حاجة ، وكذلك ينبغي أن تكون الاجارة للمشتري ،
فان البائع راغب عن السلعة يبنى ترويجها والمشتري محتاج
اليها ، هذا هو الاحسن الا أن يتعدى من عليه الدين حده ،

١٩٤

فعمد ذلك نصرته في منعه من تعديه (هـ) أن يقيّل من يستقيله ، فانه لا يستقيّل الا ، متقدّم مستضرّ بالبيع ، ولا يذبحى أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه (و) أن يقصد في

معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم ان لم تظهر لهم ميسرة .

٨١ - ويقول الغزالي ان شفقة التاجر على دينه تم بمراعاة أمور أهمها : حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة ، فلينبه بها الاستغناء بالحلال عن الناس ، واستعانة بما يكسبه على الدين وقايما بكفاية العيال ، وأن يقصد القيام وصنعتة أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، وأن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة (المساجد) قال تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وابتاء الزكاة » ، ثم مهماممع الاذان فينبغى أن لا يرجع على شغل ويتزعج عن مكانه ويدع كل ما كان فيه (والافضل اتخاذ يوم الجمعة يوم راحة) وأن لا يقتصر على هذا بل يلزم ذكر الله سبحانه في السوق ويشغل بالتهليل والتسبيح ، وينبغى أن يراقب

جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ، فانه مراقب
ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب فى كل فعلة وقوله
أنه لم أقدم عليها ولاجل ماذا .

٨٢ - ويرى الغزالى وجوب ان لا يكون التاجر (الشفيق
على دينه) شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بان يكون
أول داخل وآخر خارج وبان يركب البحر فى التجارة فهما مكر وهان ،
لكننا نرى ان قوله تعالى « فانتشروا فى الارض ، وابتنوا من فضل
الله » لا يتنافى مع الجسد فى الترويج لسلعته والمنافسة المشروعة
والسعى لان يكون اول داخل وآخر خارج وان يركب البحر او
غيره سعيا وراء الرزق وابتناء من فضل الله .

٨٣ - مراقبة الله فى العجب : ويقول الغزالى ان
العجب مذموم وآفاته كثيرة ، فانه يدعو الى الكبر لانه
أحد أسبابه فيقولد منه (مع العباد) ومن الكبر الآفات
الكثيرة ، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان
الذنوب وإهمالها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه
فلا يجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له ، وأما

العبادات والاعمال فانه يستعظمها ويتبجح بها ، ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكن منها ، ثم اذا أعجب بهاعى عن آفاتهما ، ومن لم يتفقد آفات الاعمال كان أكثر سعيه ضائعا ، والعجب يغتر بنفسه ويرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ويخرجه العجب الى أن يثني على نفسه ويحمدها وزيكها ، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بال رأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ .

٨٤ - ويقول الفزالي ان العجب أنما يكون بوصف هو كمال لالة ، والعجب أن يكون العالم بكمال نفسه في علم وعمل ورأى وعقل وجمال وقوة ونسب (وكثرة أنصار واتباع وولاية وغيره) ، غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا اليه ويكون فرحه به من حيث أنه كمال ونعمة وخير ورفعة (ومن حيث انه صفته ومنسوب اليه بانه له) لامن حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة منه فاذا العجب هو استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم ، فان انضاف الى ذلك أن غلب

على نفسه أن له عند الله حتما وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا (كأن يتوقع اجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه واستبعد أنه يجرى عليه مكروه سمي هذا دلالة بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة (ويكون مدلا عليه والادلالات وراء العجب - إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والادلالات لا يتم الا مع توقع جزاء) .

٨٥ - مراقبة الله في الحسد : ويقول الغزالي ان الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل ، فالادوية العلمية أن يتفكر الانسان أنه بالحسد مهلك نفسه ومنغص عيشه (اذ يتعذب بكل نعمة يراها على أعدائه ويتألم بكل بلية تنصرف عنهم) ، ومسخط ربه (اذ مسخط قضاءه وغش رجلا من المؤمنين وترك نصيحته ولم يحب الخير له ، بل أحب له البلايا ، وزوال النعم) ، ومع هذا فلا تنزل النعمة عن المحسود بحسده ، بل يتعرض لمسخط الله تعالى وشديد عذابه في الآخرة ونقل

حسناته اليه ، وعساه يحاسد رجلا من أهل العلم ويحب أن
يخطيء في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح ويحب
أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يعرض حتى لا يعلم ولا يتعلم
وأى اثم يزيد على ذلك .

واما العمل النافع في الحسد فهو ان يحكمه ، فكل
ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي ان يكلف نفسه
نقيضه فان بعثه الحسد على القدح في المحسود كلف لسانه
المدح له والثناء عليه ، وان حمله على التكبر عليه الزم نفسه
التواضع له والاعتذار اليه ، وان بعثه على كف الانعام عليه
الزم نفسه الزيادة في الانعام عليه ، فمما فعل ذلك عن تكلف
وعرفه المحسود طاب قلبه واحبه ، ومهما ظهر حبه عاد
الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ،
ثم ذلك الأحسان يعود الى الاول فيطيب قلبه ويصير
ماتكلفه اولا طبعاً آخر ، وتهون مرارة هذا الدواء بقوة
الرغبة في ثواب الرضى بقضاء الله تعالى .

٨٦ - ويقول الغزالي ان الحسد صفة القلب لا صفة الفعل

« قال تعالى « ان تمسككم حسنة تموت » ، اما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد ، وهذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وانما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح (بقول أو فعل) ، فاما اذا كفت ظاهرك وأزمت مع ذلك قابك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمتعت نفسك على ما في طبعه ما فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أدبت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الاحوال أكثر من هذا (والمستغرق بحب الله تعالى لا يلتفت قلبه الى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر الى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله ويروا هم مسخرين) ، وقد ذهب ذاهبون الى انه لا يائس اذا لم يظهر الحسد على جوارحه والظاهر أنه لا يخلو عن أثم بقدر قوة حب زوال النعمة وضعفه .

٨٧ - مراقبة الله في الكبرياء : وقال تعالى « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق » ، ويقول الغزالي ان الكبر ينقسم الى خلق باطن في النفس (يسمى

٢٠٠

كبرا) والى أعمال ظاهرة تصدر عن الجوارح (تسمى
 تكبرا) ، فالاصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح
 والركون الى رؤية النفس فوق للتكبر عليه (فيستعظم
 نفسه وينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى
 مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة
 يحصل فيه خلق الكبر ، ولذا هو لا يتكبر على من هو
 أعظم من نفسه أو مثل نفسه أو على حقير هو أحقر منه)
 فهذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل فى قلبه اعتداد
 وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز فى نفسه بسبب
 ذلك . ثم هذه العزة (الكبر) تقتضى أعمالا فى الظاهر
 والباطن وهى ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم
 عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه
 عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومثواكلته ورأى ان
 حقه ان يقوم مائلا بين يديه ان اشتد كبره ، فان كان اشد
 من ذلك استنكف عن استخدامه ، فان كان دون ذلك
 فيأنف من مساواته وتقدم عليه فى مضائق الطرق وارتفع

٢٠١

عليه في الحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد قصيره
في قضاء حوائجه وتعجب منه ، وان حاج وناظر أنف أن
يرد عليه ، وان وعظ استنكف من القبول ، وان وعظ عذف
في النصيح ، وان رد عليه شيء من قوله غضب ، وان علم لم يرفق
بالمعلمين واستذلهم واتهرم وامتن عليهم واستخدمهم
وينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحسير استجبالا لهم
واستحققارا ؛ والكبر صار حجابا دون الجنة لانه يحول بين
العبد وبين أخلاق المؤمنين كلما فيدعوه الى كل الاخلاق
الذميمة اذ هي متلازمة والبعض منها داع الى البعض لاحالة
(فلا يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقبل الحق وينقاد
له ويزدري بالناس » واذا قيل له اتق الله ، أخذته العزة
بالاثم » .

—— — ويقول الغزالي ان التكبر باعتبار المتكبر
عليه ثلاثة اقسام اخفها التكبر على الله (كفرعون اذ قال لتكبره
أنا ربكم الاعلى اذ استنكف ان يكون عبد الله ، ولا مثار الا
الجهل المحض) ، ثانيا التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس

٢٠٢

وترفهم ان الاتقياد بالبشر ، وذلك تارة يعرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الاتقياد وهو ظان أنه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لاتطاوله نفسه الاتقياد للحق والتواضع للرسول « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » ، وثالثها التكبر على العباد (وهذه رذيلة عظيمة لان السكبر والعز والعظمة لا يليق الا بالله الملك القادر) .

١٩ - مراقبة الله في الالفة والصحة : والصحة تنقسم الى ما يقع بالاتفاق (كالصحة بسبب الجوار أو الاجتماع في المدرسة أو في السوق أو في الاسفار) والى ما ينشأ اختياراً أو يقصد ، ويقول الغزالي ان الصحة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ، وهذه الأمور لا يقصد الانسان بها غيره الا اذا أحبه ، فان غير المحبوب يجتنب ويباعد ، والذي يجب فاما أن يحب لذاته واما أن يحب للتوصل الى مقصود مقصور على الدنيا وحظوظها (وهو مذموم ان كان القصد مذموما كقهر الاقران وحياسة أموال اليتامى ، ومباح

٢٠٣

ان كان القصد التوصل الى مباح كنييل جاه أو مال أو علم) ،
 واما أن يكون متعلقا بالآخرة (كمن يحب أستاذه لأنه
 يتوصل به الى تحسين العلم وتحسين العمل للفوز في الآخرة ،
 وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم) ، واما أن
 يكون متعلقا بالله تعالى بأن يحب لله وفي الله ، وهذا أعلى
 الدرجات وأدقها وأغمضها (وهو ممكن لان من آثار غلبة
 الحب أن يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق بالمحبوب
 ويناسبه ولو من بعد . فمن أحب انسانا جاشديدا أحب عبه وأحب عبه
 وأحب من يخدمه وأحب من يثق عليه محبوه ، وأحب من يسارع الى رضى محبوه ،
 وكذلك حب الله سبحانه وتعالى اذا قوى وغلب على القلب استولى عليه فيتعدى
 الى كل موجود سواء ، فان كل موجود سواء أثر من آثار قدرته) .

ويقول الغزالي ان « كل من يحب في الله ، لا بد أن
 يبنض في الله ، فانك ان أحببت انسانا لأنه مطيع لله
 ومحبوب عند الله ، فان عصاه فلا بد أن تبغضه ، فاذا اجتمع
 في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فانك
 تحبه من وجهه وتبغضه من وجهه ، واظهار البغض اما بالقول

٢٠٤

فبكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى ، وأما في الفعل فبقطع السعي في اعاتته مرة وبالسعي في اساءته وافساد ما ربه أخرى ، وبعض هذا أشد من بعض وهو بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه ، أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متقدم عليها ولا يصبر عليها ، فالأولى فيه الستر والاغماض .
وتطابقا على هذا المبدأ نرى الغزالي يقول ان الأولى الاعراض عمن يعصى بفعل يتأذى به غيره بل الاستحباب في اهااتهم (وذلك كالظلم في الدماء والاموال والاعراض - وبعضها أشد من بعض - ، وكن يدعو غيره للفساد كصاحب الماخور الذي يجمع بين النساء والرجال ويهيئ أسباب الشرب والفساد) ، وكذلك يرى الاستحباب في اظهار بغض المبتدع الذي يدعو الى بدعته ، ومعاداته والانتقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببذعته وتنفير الناس عنه أشد (كترك الجواب عن سلامه في ملأ ، أما ان سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه) ، ويرى استحباب الاعراض عن العالم المبتدع

الذى لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به ونصح ولم
 يتنصح (ان كان فى الاعراض عنه تقبيح لبدعته فى عينه)
 وأما الكافر فيقتل ويرق ان كان محارباً ، وأما الذمى فيرى
 أنه لا يجوز اذناؤه الا بالاعراض عنه والتحقيق له بالاضطرار
 الى أضيق الطرق وبترك المفاتحة بالسلام ، فاذا قال السلام
 عليك قلت وعليك ، ويرى أن الاولى الكف عن مخالطته
 ومعاملته ومواكلتة ، وأن الانسباط معه والاسترسال
 اليه كما يسترسل الى الاصدقاء مكروه كراهة شديدة يكاد
 ينتهى الى حد التحريم . وأما الذى يفسق فى نفسه بمقارفة
 محظور يخصه كالذى يشرب ويبنى ، فيرى أنه فى وقت
 مباشرته ان صودف يجب منعه بما يمتنع به ولو بالضرب
 والاستخفاف (ونرى وجوب ترك عقوبة الفعل لاولياء
 الامور منعا من الفوضى واساءة استعمال هذا الحق فيودى
 الى الجرائم) ، واذا فرغ منه وعلم ان ذلك من مآذيه وهو
 مصر عليه فيجب نصحه ان تحقق ان نصحه يمنعه عن العود
 اليه ، وان لم يتحقق ولكن كان يرجو فالأفضل النصح

٢٠٦

والزجر بالناطف أو بالتفليظ ان كان هو الانفع (والمستقى هو القلب في الاعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصير وأن النصيح ليس ينفعه) .

٩٠ - وغير المسلمين ينقسمون الى مشرك نجس

(ويدخل فيهم الوثنيون والمجوس والطيبعيون) والى كتابين وأظهرهم الان المسيحيون واليهود) ، والفريق الاول لكثرة عدده في العالم أرى أن نخوتنا الدينية توجب على خاصتنا الاتصال به لكي نأشر الدعوة الاسلامية بين ظهراينهم ، وهذا لا يكون بالابتعاد والعنف بل يكون بالتودد واللفظ ، وأما الفريق الثاني فأرى أنه مادامت المعاملات المادية تقتضي الاتصال ، ويدعو هذا الاتصال الى الحسن في المعاملة والاخلاص فيها ، ومادامت الانسانية تقرر اجتماعنا جميعا في الشعور بالاذة والالم ، وان اختلف هذا الشعور واختلف مداه واختلفت درجته من حيث السمو الروحي ، ومادام الناس جميعا عباد الله فيجب أن تحب فيهم محاسنهم الخلقية والمعنوية لهذا المعنى ، ومادام القلب لا يمكن قراءته واخاتمة

٢٠٧

لا يستطيع معرفتها فقد يكون مؤمناً سرا بقلابه وقد يموت مسلماً ، مادام هذا كذلك فلرأى وجوب أن نفهم أن اختلاف الاديان أمر أراد الله إذ قال في كتابه الكريم « وانك لاتهدى من أحبيت ، ولكن الله يهدي من يشاء » وقال قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » وقال « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، فيجب أن نعامل غير المسلمين نفس المعاملة الامينة التي نعامل بها المسلم ، وقد وضع لنا النبي الكريم وأصحابه أسوة حسنة إذ كانوا يحضرون ولائم غير المسلمين ويغشون مجالسهم ويشيعون جنازتهم ويعزونهم في مصائبهم ، وأمرنا الاسلام بمساواتهم أمام القانون وأن نوفيهم حقوقهم كاملة ولا نبخسهم منها شيئاً ، بل لقد أمرنا الله في كتابه العزيز أن نعامل غير المسلمين كما نعامل المسلمين بالرفق ومكارم الاخلاق فقال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبوهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين » ، فاذا كان الاسلام يأمرنا بمعاملة الاجانب عن

٢٠٨

ديننا ومحاسنتهم لا مواربة ومداهنة خوفا منهم أو طمعا فيهم بل عن صفاء نية وإخلاص طوية حتى أنه ينهانا عن اغتياب أحد منهم وذكره بما يكره ، بل شدد النبي الكريم النكران على من يؤذيهم فقال « من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه فتمد خصمته يوم القيامة » وقال « من قذف ذميا حدث له يوم القيامة بسياط من نار » وقال « خاب عبد خسر ، لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر » ، فيجب أن نعامل مجموعهم معاملة صافية وصديقههم معاملة مخلصمة آمنة ، وأن نحب فيهم ما يحب من جمال حسبي وخلقى ومعنوى ، وأن نكره فيهم ما يكره من قبح واقبح القبح سوء العقيدة وفسادها ، ولكننا إذا كرهنا سوء العقيدة فليس معنى هذا كراهية أصحابها ، وإذا كننا نبغض فساد العقيدة فليس معنى هذا البغض لمعتنقيها ، لأنه يجب أن نحب لعباد الله جميعا ما نحب لأنفسنا فيجب أن نحب لفساد العقيدة أن يقلع عنها ويرجع لربه ، فإذا رجع فرحنا برجوعه ، وإذا لم يرجع فقد يرجع يوما ما وقد يكون راجعا بالفعل ولكنه لا اعتبارات

٢٠٩

كثيرة يراها قد رجع سرا ، واذا لم يرجع فأمره الله ، ويجب أن نحزن على عدم رجوعه لأن نبغضه عليه لاننا لاندرى بماذا ختم له ، فقد يكون في ظاهره غير راجع وفي الحقيقة قد رجع ، والمعاملة الامينة المخلصة على هذا الاعتبار حب في الله لانك قد راقبت الله في معاملة عبد من عباده ، ولكن اذا ظهر من هذا الغير مسلم ما يدل على الاصرار على عقيدته بمحاربة الاسلام أو الطعن فيه أو إيذاء المسلمين لانهم مسلمون أو العمل على اخراج مسلم عن دينه بالاغراء أو التفرير ، فهنا يجب بغضه (لعمله ولذاته) ويجب تحقيره والازدراء به وقطع كل معاملة معه بل معاداته ، وهنا فقط يكون بغضه بغض في الله .

هذه هي وجهة نظرنا ، وليس معنى ذلك أن الغزالي مخطيء في وجهة نظره لانها في زمانه كانت أحسن وجهة لنها ب كل الملل والنحل في التعصب الى أبعد مدى ، وحتى اذا قلنا بأن وجهة نظره في بغض غير المسلمين وفي نوع معاملتهم خاطئة ، فانه لا يقلل من مكانة نبل آرائه اذ العصمة

والكمال لله وحده . وآراء الغزالي التي يمكن أن تكون موضع خلاف قليلة ولا يمكن أن يقال أنه خاطيء فيها بل كل ما يمكن قوله أنه قد توجد وجهات نظر أخرى تكون موضعاً للتساؤل هل الأحسن الأخذ بها أم لا ، فمثلاً ذكر الغزالي عند كلامه عن النكاح وجوب أن يذكر الرجل اسم الله ويكبر إذا أراد الاتصال البهيمي بزوجه ، وقد يكون هذا موضع تساؤل هل هذا أحسن أم جعل التكبير سابقاً على الفعل لأن الإنسان في هذه الحالة يكون في حالة يحسن أن يحترم الذكر إبانها ، وأورد الغزالي نفسه في كتابه عند كلامه عن الصلاة النهى عن أن يقرب (المحصور) في بول أو غائط (المجاهد لهما أى الواحد رغبة قوية فيهما) الصلاة لكي يتفرغ المصلي لصلاته ولكيلا يعرض له في الصلاة ما يضطره إلى الضغط على أعضائه أو التفكير فيهما ، فيمكن قياس هذه بتلك ، كما يمكن أن يقال بوجوب ذكر الله في أى حال حتى ولو كان الشخص نجساً (خروج النجس منه لاتصاله بزوجه أو لاحتلاجه في منامه) ، كما يمكن أن

٢١١

يقال بوجوب ذكر الله ولكن يجب اجلال ذكره في حالة
للباشرة للنكاح أو البول أو الفائط ، والمستفتى فيه هو
القلب .

٩١ - مراقبة الله في السماع والوجد : ويقول الغزالي
أنه لا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، بل قد دل النص
والقياس جميعا على اباحته ، أما القياس فهو أن الغناء سماع
صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، أما سماع
الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغي أن يحرم
بل هو حلال بالقياس (إذ يرجع الى تلذذ حاسة السمع بأدراك
ما هو مخصوص به) وبالنص (اذ امن الله تعالى على عباده
به بقوله « يزيد في الخلق ما يشاء » - ومنه الصوت الحسن -
ويدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن قوله « إن انكر الاصوات
لصوت الحمير » . والوزن وراء الحسن) . ويقول الغزالي ان الله
تعالى سرا في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى أنها تتوثر
فيها تأثيرا عجيبا ، فن الاصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها
ما ينوم ومنها ما يضحك ويغرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء

٢١٢

الرقص بحركات على وزنها باليد والرجل والرأس (وهذا جار في الاوتار بالتأثير بالنغمات الموزونة لا بفهم معاني الشعر ، وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء اليه ، وفي الجمل مع بلادة طبعه اذ يتأثر بالحاء تأثرا يستخف معه الاحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة) .

٩٢ - فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لاغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب ، ويقول الغزالي أنها سبعة مواضع : (١) سماع هو من جملة القربات: وهو سماع من أحب الله واشتاق الى لقاءه ، فالسمع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه ومستخرج منه أحوالا (تسمى بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود والمصادفة أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع) تكون أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات ، ثم يتبع

الصفاء الحاصل به المشاهدات والمكشفات (٢) غناء الحبيج :
وهو مباح لاهاجته الشوق الى بيت الله تعالى بالغناء على
الطبل والشاهين بأشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام
والخطيم وزمزم وسائر المشاعر (٣) ما يعتاده الغزاة
من الاشعار وطرق الالحان وطرق الوزن الشجعة لتحريض
الناس على الغزو واستثارة داعيته بالتشجيع وتحريك الغيظ
والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس
والمال ، وذلك أيضا مباح في وقت يباح فيه الغزو .

(٤) الرجزيات التي

يستعملها الشجعان في وقت اللقاء والغرض منها التشجيع
للنفس والانصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح
بالشجاعة والنجدة ، وذلك اذا كان بلفظ رشيق وصوت
طيب كان أوقع في النفس : وذلك مباح في قتال مباح ولذلك
ينبغي أن يمنع من سائر الاصوات والالحان المرفقة التي
تحمل عقدة الشجاعة وتضعف صرامة النفس وتسوق الى
الاهل والوطن وتورث الفتور في القتال (كالضرب بالشاهين

لان صوته محزن مرقق) (٥) أصوات النياحة
 ونغمتها وتأثيرها في تهيج الحزن والبكاء وملازمة الكتابة
 والحزن : ويذم فيها ما كان حزنا على ما فات (كالحزن على
 الاموات) ، ويحمد حزن الانسان وتحازنه على تقصيره
 في أمر دينه وبدؤه وتبأكيه على خطاياهم (فيحمد تحريكه
 وتقويته لانه يبعث على التشمير للتدارك) ، وعلى هذا
 لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر
 بألحانه الاشعار المحزنة المرققة للقلب ولأن يبكي ويتباكى
 ليتوصل به الى تبكية غيره واثارة حزنه (٦) السماع في
 أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهيجاً له : وهو مباح ان
 كان ذلك السرور مباحاً ، وقد أنشد النساء على السطوح
 بالدف والالخان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
 وجب الشكر علينا ما دعى الله داعي

(٧) سماع العشاق
 تأكيداً للذة (في مشاهدة المعشوق) وتحريكاً للشوق

وتهيبجا للعشق وتسلية للنفس وتحصيل لذة الرجاء المقدر
 فى الوصال مع الاطناب فى وصف حسن المحبوب (ان كان
 مع المفارقة) : وهذا حلال ان كان المشتاق اليه ممن يباح وصاله
 كمن يهشوق زوجته فيصغى الى غنائها ، وكذلك ان غضبت
 منه أو حيل بينه وبينها بسبب من الاسباب فله أن يحرك
 بالسماع شوقه وأن يستنير به لذة رجاء الوصال ، فان طلقها
 حرم عليه ذلك بعده . وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبي
 أو امرأة لا يحل له النظر اليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل
 فى نفسه فهذا حرام لانه محرك للفكر فى الافعال المحظورة
 ومهيج للداعية الى ما لا يباح الوصول اليه .

٩٣ - عوارض السماع : ويقول الغزالي أنه يحرم السماع
 بخمسة عوارض : أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر اليها وتختشى
 الفتنة من سماعها (وفى معناها الصبي الامرد الذى تختشى فتنته) ،
 وأن تكون الآلة من شعار أهل الشرب أو المخنثين (وهى المزامير
 والاوتار وطبل الكوبة) ، وأن يكون فى نظم الصوت وهو الشعر
 شئ من الخنا والفحش وهجو غير الكفار وأهل البدع أو الكذب

على الله ورسوله ، وكذلك مافيه وصف امرأة بعينها (وأما التسيب وهو التثريب بوصف الحدود والاصداغ وحسن اللقد والقامة وسائر أوصاف النساء فلا يحرم نظمها وانشاده بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فان أنزله فلينزله على من يحل له من زوجته ، فان أنزله على أجنبية فهو العاصي باجالة الفكر فيه) ، وأن تكون الشهوة غالبية على المستمع وكان في غرة الشباب ، وأن يتخذ ديدنه وهجيرا ويقصر عليه أكثر أوقاته (اذ ترد شهادته لسفاهته لان السماع ولو أنه لذة مباحة الا أنه هو والمواظبة على اللهو جنابة) .

٩٤ - مراقبة الله في الجاه : ويقول الغزالي ان الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الاعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها والتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في اغراضه وما ربه (كالمدح والاطراء اذ المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فينتي عليه ، وكالخدمة والاطانة فانه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في اغراضه ،

٢١٧

وكانت عظيم والتوقير بالمفاخرة بالسلام وتسليم الصبر في المحافل
والتقديم في جميع المقاصد والايتار وترك المنازعة) .

فاذا منى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لنت من
نوت الكمال فيه (ولو لم يكن كالا في نفسه) ، فيقدر مايمتدنون من كمال
نذن له قلوبهم ، وبقدر اذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته
على القلوب يكون فرجه وجهه للجاه .

ويقول الغزالي ان الجاه أحب من المال ، ولملك الجاه
ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه : (١) ان التوصل بالجاه
الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه، و(٢) ان المال معرض
للبلى والتلف بأن يسرق ويغصب ويحتاج فيه الى الحفظه
والحراس والخزائن ويتطرق اليه أخطار كثيرة ، وأما
القلوب اذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات (وانما تغصب
القلوب بالنصرىف وتقبىح الحال وتغير الاعتقاد فيما صدق
به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على
محاولة فعله) و (٣) ان ملك القلوب
يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاساة ،

٢١٨

فان القلوب اذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله أفسحت
 الألسنة لالحالة بما فيها فيصف مايعتقده لغيره ويقتنص
 ذلك القلب أيضا ، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار
 الذكر لأن ذلك اذا استطار في الاقطار اقتنص القلوب
 ودماها الى الاذعان والتعظيم . والفزالي لا يرى الكمال الحقيقي
 إلا العلم (بمعرفة الله) والحرية (بالاخلاص من أسرار الشهوات
 وغموم الدنيا والامتيلاء عليها بالقهر) والبعد عن التغير
 والتأثر بالعوارض ، ليقرب الى الله تعالى وتعظم منزلته
 عنده ويتشبه بالملائكة . ولذا نراه يذم الجاه بمعناه المفهوم ،
 ويقول ان حكم الجاه حكم الاموال عرض من أعراض الحياة
 الدنيا وينقطع بالموت كالمال ، وحبهما لأجل التوصل بهما
 الى مهمات البدن غير مذموم ، ولكن يذم حبهما لآنيتهما
 فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته (ولا يوصف صاحبه بالفسق
 ما لم يتوصل اليه بعباده وما لم يحمله الحب على مباشرة معصية
 وما لم يتوصل الى اكتسابه بكذب وخداع وتبليس إما
 بالقول أو بالعاملة وارتكاب محظور بطلب قيام المنزلة في

قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب . ويباح طلب المنزلة بصفة هو متصف بها أو باخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم ، لانه صادق في الاول ساتر للقبیح في الثاني) .

٩٥ - ويرى الغزالي أن حب المدح والتذاذ القلب به ثلاثة أسباب قد تجمع في مدح مادم واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفرق فتتقص اللذة بها ، نرى ذكر علاجها الذي رآه معها : (١) شعور النفس بالكمال (وهو أقوى الاسباب) ، فهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس المدوح بكمالها ، فان كان الوصف الذي به مدح جلياً محسوساً كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة (كفتنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون) ، وان كان ذلك الوصف مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم (كالثناء عليه بكمال العلم وبكمال الورع أو بالحسن المطلق) ، وانما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول

٢٢٠

إلا عن تحقيق (وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه
بالذكاه) . ويقول الغزالي ان طريق العلاج ملاحظة هذا
السبب الذى لاجله يحب المدح ويكره الذم ، وطريقك فيه
أن ترجع الى الصفة التى يمدحك بها ، فان كانت من الاعراض
الدنيوية (كالثروة والجاه) فن قللة العقل الفرح بها لانها
عروض زائلة ، وان فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح
بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها ، وان كانت
الصفة مما يستحق الفرح بها (كالورع والعلم) فينبغى أن
لا يفرح بها لان الخاتمة غير معلومة ، ثم ان كنت تفرح
بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل
الله عليك لا بمدح المادح لانه لا يزيدك فضلا ، وان كانت
الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية
الجنون إذ هو اما استهزاء بك أو غاية الجهل (٢) أن المدح
يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وأنه يريد له
ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته ، وملك القلوب محبوب
والشعور بمحصله لذيد ، وان ثناءه سبب لاصطياد قلب

كل من يسمعه (لاسيما مهما كان الجمع أكثر، وبهذه العلة
تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته ويستفيع بأقتناص
قلبه (كالمملوك والا كابر) ويضعف مهما كان المادح لايؤبه
له ولا يقدر على شيء فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على
أمر حقير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصر . ويقول الغزالي
ان معالجة هذا السبب بقطع الطمع عن الناس وبطلب المنزلة
عند الله وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك
به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به (٣) أن المدح
يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان
بالثناء على الممدوح اما عن طوع واما عن قهر ، فان الحشمة
أيضا لذينة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللذة تحصل
وان كان المادح لا يعتقد في الباطن مامدح به ويكون كونه
مضطرا الى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون
لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوى الممتنع
عن التواضع بالثناء أشد . ويقول الغزالي أن هذه الحشمة
التي اضطرت المادح الى المدح ترجع ايضا الى قدرة عارضة

لأثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغي أن يغمره مدح المادح
ويكرهه ويغضب به ، ومهما علم أن أمره بيد الخالق وأن
الارزاق والآجال بيد الله تعالى ، قل التفاته إلى مدح الخلق
وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من
أمر دينه .

٩٦ - ويقول الغزالي أن العلة في كراهة الذم
هو ضد العلة في حب المدح فعلاجه أيضا يفهم منه ، فإن كان
من ذمك صادقا وقصده النصيح والشفقة فلا ينبغي أن
تذمه بل ينبغي أن تفرح به وتستغل بإزالة الصفة المذمومة
عن نفسك إن قدرت عليها ، وإن كان قصده الإيذاء والتعنت
فهو قد تضرر ربه في دينه وأنت قد انتفعت بقوله (اذكر ك
عيبك أو أرشدك إليه أو قبحه في عينك) ، وإن افتري
عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره
ذلك ولا تستغل بذمه بل تفكر في أنك في غنى عنه وأنت
إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو من أمثاله وأشباهه
وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعك

٢٢٣

على عيوبك ، وأن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك
إذ أهدى إليك حسناته بغيبته) ، وأن المسكين قد أهلك
نفسه باقترائه وتعرض لعقاب الله الاليم ، فلا ينبغي أن تغضب
عليه مع غضب الله فاشمت به الشيطان بل ينبغي أن تقول
اللهم أصلحه وتب عليه وارحمه .

٩٧ - ويقول الغزالي ان للناس أربعة أحوال
بالإضافة الى الذام والمادح (١) أن يفرح بالمدح
ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكفئه
أو يحب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات
المعصية في هذا الباب (٢) أن يتمتع في
الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته
ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن اظهار
السرور ، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة الى ما قبله كمال
(٣) أن يستوى عنده
ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا أول
درجات السكال ، وعلاماته أن لا يجحد في نفسه اسئقلا

للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح
وأن لا يجحد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج
المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع
الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون
موت المادح المطرى أشد نكابة في قلبه من موت الذام
وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر
مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على
قلبه وفي عينه من زلة الذام (٤) الصدق في العبادة
وهي أن يكره المادح اذ يعلم انه فتنة عليه ويحبب الذام اذ
يعلم انه مهد اليه عيبه ومرشد له الى مهمه ومهد اليه حسناته

٩٨ - مراقبة الله في الاعمال وعزم الرياء :-
ويقول الفزالي النسب الرياء حرام والمرأى عند الله ممقوت ،
والرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع ، واسم
الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات
واظهارها ، فحد الرياء هو ارادة العباد بطاعة الله ، والمرأى
به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي مجامع ما يترين به العبد

٢٢٥

للناس وهو البدن والذى وبالقول وبالعمل وبالأصحاب
والزائرين والمخالطين . فالرياء هو طلب الجاه وهو يكون
بالعبادات أو بغير العبادات (كالرياء باظهار الجمل وأنواع
التوسع والتفاسيح واظهار التودد الى الناس والتبختر) ، إلا
أن طلب الجاه بأعمال ليست من الطاعات أهون من
الرياء بالطاعات ، وطلب الجاه كطلب المال يحرم كسبه
بتلييسات وأسباب محظورات ، وأما سعته من غير حرص
منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلا ضرر فيه ،
ولكن انصرف الهم الى طلب الجاه (أو المال) نقصان
في الدين ولا يوصف بالتحريم (وهي رغبة تدم أو تمدح بحسب
الغرض المطلوب بها) . واذا لم يكن للمرأى بالعبادات إلا
قصد الرياء المحض دون الأجر ، فتبطل عبادته بل يعصى
بنك ويأثم لان فيه تلييسا ومكرا على الناس لانه خيل
اليهم أنه مخلص مطيع لله وليس كذلك (والتلييس في أمر
الدنيا حرام أيضا) ، وهو مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق
الله فهو مستهزئ بالله اذ قصد بطاعة الله تعالى مراآة عبد

ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا ، ماذلك إلا لانه يظن أن
ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى
بالتقرب اليه منه ، ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم
الشرك الاصغر ، ولو لم يكن في الرياء إلا أن يسجد ويركع
لغير الله لكان فيه كفاية ، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود
للكفر كفرا جليا إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لان المرأى
عظم في قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع
(فقصده تعظيم الناس بالسجود لاقصد تعظيم الله فكان
ذلك قريبا من الشرك) ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب
من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعند
هذا كان شركا خفيا .

٩٩ - ويقول الغزالي ان أغلظ الرياء هو الرياء
بالاصول وأغلظها الرياء بأصل الايمان (وصاحبه منافق مخد
في النار ، وهو كمن يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه)
ويليه الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين
(كأن يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر) ،

٢٢٧

وبليه الرياء بالنوافل والسنة التي لو تركها لا يعصى ولكنه
يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولا يثار لذة
الكسل على ما يرجي من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها
(كحضور الجماعة في الصلاة وعبادة المريض واتباع الجنائز ،
وهذا أيضا عظيم ولكنه دون ما قبله) . وبلى الرياء بأصول
العبادات الرياء بأوصاف العبادات وهذا على ثلاث درجات :
(١) أن يرأى بفعل ما في

تركه نقصان العبادة (كالذي اذا رآه الناس أحسن الركوع
والسجود وترك الالتفات) وهذا استهزاء بمقوت .

(٢) أن يرأى بفعل

مالا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة
لعبادته (ككثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت) .

(٣) أن يرأى بزيادات

خارجة عن نفس النوافل أيضا (كحضوره الجماعة قبل القوم
وقصده للصف الاول) ، والكل مذموم .

وللرأى مقصود لامحالة ، وللمراءى لاجله ثلاث درجات

(مقتوة كلها) : (١) أشدها وأعظمها

يكون مقصوده التمكن من معصية (كأن يظهر الحكمة على سبيل
الوعظ وقصده التحبب الى امرأة أو غلام لاجل الفجور ، أو يظهر
الورع ليعرف بالامانة فيولى الاوقاف أو مال الايتام فيأخذها) ،
ويقرب من هؤلاء وان كان دونهم من هو مقترف جريمة اثم بها
وهو مصر عليها (كأن تمجد وديعة) ويريد أن ينفي التهمة عن
نفسه فيظهر التقوى (ويتصدق بالمال في مثالنا ليقال أنه يتصدق
بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره) (٢) أن يكون غرضه نيل
حظ مباح من حظوظ الدنيا (كالذى يشتغل بالوعظ والتذكير
لتبذل له الاموال ويرغب في نكاحه النساء الجميلات أو الشريقات)
(٣) أن لا يقصد نيل وادراك

حظ ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر اليه بعين النقص
ولا يمد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة (كالذى
يدعى الى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم)

♦ ♦ — ويقول الغزالي ان الرياء جلي وخفي ، فالجلي هو

الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ،

٢٢٩

وأخفى منه قليلا هو مالا يحمل على العمل بجريده الا أنه يخفف
 العمل الذي يريد به وجه الله ، وأخفى من ذلك مالا يؤثر في العمل
 ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب
 ومهما لم يؤثر في الدماء الى العمل لم يمكن أن يعرف الا بالعلامات
 وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته ، وأخفى من ذلك
 أن يخفى بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه
 مع ذلك اذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن
 يتنوا عليه ، فان قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، وكل ذلك
 يوشك أن يحبط الاجر ولا يسلم منه الا الصديقون ، ولكن ليس
 كل شوب محبط للاجر ومفسدا للعمل ، اذ السرور أقسام لا يكره
 منها الا أن يكون فرحه ثقيام منزلته في قلوب الناس ، فيحمد
 فرحه بحميل نظر الله له باطلاع الخلق على الجميل من أحواله « قل
 بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا » وان يستدل باظهار الله
 الجميل وسره القبيح عليه في الدنيا انه كذلك يفعله في الآخرة
 (للحديث الشريف ماستر الله على عبد ذنبا في الدنيا الاستر
 عليه في الآخرة) ، وان يسر باقتداء المظلمين به في الطاعة (لان

٢٣٠

له زيادة على اجر العلانية بما اظهر آخرا ، اجر السر مما قصد اولا
من اخفاء الطاعة والاخلاص لله ، ومثل اجر اعمال المقتدين به) ،
وان يفرح بطاعة المطلقين على طاعته في مدحهم وبمحبهم للمطيع
وعمل قلوبهم الى الطاعة (ويكون فرحه بمحمد غير مثله فرحه
بمحمد اياه) .

١٠١ - واذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم
ورد عليه بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير اظهار
فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما
عن الرياء . ويقول الغزالي ان الاظهار قسمان : (١) اظهار نفس
العمل كالصدقة في الملاء لترغيب الناس فيها للحديث القائل «من
من سنة حسنة فعمل بها ، كان له اجرها وأجر من تبعه» .
(٢) أن يتحدث

بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم اظهار العمل نفسه والخطر
في هذا أشد ، لان مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجري
في الحكايات زيادة ومبالغة ، ولتنفس لذة في اظهار الدعاوى
العظيمة ، إلا أنه لو تطرق اليه الرياء لم يؤثر في افساد العبادة

اللامنية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم اخلاصه وصغر نفسه في عينه واستوى عنده مدحهم ، وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه. فهو جائز بل هو مندوب اليه ان صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لأنه زفيب في الخير والترغيب في الخير خير .

١٠٢ - والاصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية (والعلانية اذا اطلع عليه لم يستحي منه) ، ولا يخلو الانسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لاسيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والاماني والله مطلع على جميع ذلك ، فازادة العبد لاخفائها بما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك ، بل المحظور أن يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك ، ويقول الغزالي ان للصادق الذي لا يرأى ستر المعاصي ويصح قصده فيه ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه (١) أن يفرح بستر الله

٢٣٢

عليه وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة إذ ورد في الخبر أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنب ستره الله عليه في الآخرة ، وهذا غم ينشأ من قوة الايمان (٢) أنه قد علم أن الله

تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها الحديث الشريف « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستر بستر الله » فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ، وأثر الصديق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ، وهذا ينشأ من قوة الايمان بكره الله ظهور المعاصي .

(٣) أن يكره ذم

الناس له به (كما يكره حمد) من حيث أن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى وذكره ، وهذا أيضا من قوة الايمان . (٤) أن يكون ستره

ورغبته فيه لكرهته ذم الناس من حيث يتأذى بطبعه فان الذم مؤلم للقلب ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بمحرام ولا الانسان به عاص وانما يعصى اذا جزعت نفسه من

٢٣٣

ذم الناس ودعته الى مالايجوز حذرا من ذمهم (لانه لايجوز
أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله) .

(٥) أن يسكره الذم

(وكرهه ذمه لغيره أيضا) من حيث أن الذام قد عصى الله

نعالي به وهذا من الايمان . (٦) أن يستر ذلك كيلا

يقصد بشر اذا عرف ذنبه . (٧) مجرد الحياء من

القبائح اذا شوهدت منه ، وهو خلق كريم (وأحسن منه

أن تستحي من الله) . (٨) أن يخاف من ظهور

ذنبه أن يستجري عليه غيره ويقتدى به ، وهذه العلة الواحدة

فقط هي الجارية في اظهار الطاعة ويختص ذلك بمن يقتدى

به وبهذه العلة أيضا ينبغى أن يخفى العاصى أيضا معصيته

من أهله وولده لانهم يتعلمون منه .

١٠٣ - ومن الناس من يترك العمل (الطاعات)

خوفا من أن يكون مرأثيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ،

ويقول الغزالي بل الحق فيما يترك من الاعمال ومالا يترك

خوف الآفات أن : (١) الطاعات اللازمة

٢٣٤

للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها (كالصوم والصلاة والحج) فخطرات الرياء فيها ثلاث احداها ما يدخل قبل العمل فيبيعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باءث الدين فهذا مما ينبغي أن يترك لانه معصية لاطاعة فيه فانه تدرع بصورة الطاعة الى طلب المنزلة : فان قدر الانسان على أن يدفع عن نفسه باءث الرياء فليشتغل بالعمل ، الثانية أن ينبعث لاجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها ذللا ينبغي أن يترك العمل لانه وجد باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الاخلاص بالزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول ، الثالثة أن يعقد على الاخلاص ثم يطراً الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع الى عقد الاخلاص ويرد نفسه اليه قهرا حتى يتم العمل (فمن مكاييد الشيطان ترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا انه مرء فيعصون الله بهذا لانه أساء الظن بالمسلمين ، ثم ان كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة ، وترك العمل خوفا من قولهم أنه مرء

هو عين الرياء . (٢) ما يتعلق بالخلق
وتعظم فيه الآفات والاطار : فالامارة مثلاً والخلافة من
أفضل العبادات اذا كان ذلك مع العدل والاخلاص ، فاذا
صارت الولاية محبوبة (لحب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذا لامر)
كان الولى ساعياً في حفظ نفسه ويوشك أن يتبع هواه
فيمنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وان كان حقاً
ويقدم على ما يزيد في مكائته وان كان باطلاً وعند ذلك يهلك
والحق أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا
من تقلد الولايات وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها
فيهلكوا ، وأعني بالقوى التى لا تميله الدنيا ولا يستعزه
الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم . وأما القضاء فحكمه حكم
الامارة ينبغي أن يتركه الضعفاء ومهما كان السلاطين ظلمة
ولم يقدر القاضى على القضاء الا بعداهنتهم واهمال بعض الحقوق
لاجلهم ولاجل المتعلقين بهم اذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق
لعزلوه أو لم يطيعوه ، فليس له أن يتقلد القضاء وأن تقلده
فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذراً

مرخصا له في الاهمال أصلا بل اذا عزل سقطت العهدة عنه
 فينبغي أن يفرح بالعزل أن كان يقضى لله . وبالحكمة ما يجده
 أخف على قلبه فهو في الاكثر أضر عليه لان النفس لا تشير
 الا بالشر وقما تستلذ الخير وتميل اليه وان كان لا يبعد ذلك
 أيضا في بعض الاحوال ، وهذه الامور لا يمكن الحكم على
 تفاصيلها بنفي واثبات فهو موكول الى اجتهاد القلب لينظر
 فيه لدينه ويدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، ثم قد يقع غرور
 للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ولا خلاف
 ان تفرقة المال في المباحات فضلا عن الصدقات افضل من
 امساكه . والواعظ الصادق المخلص في وعظه غير مرید
 رياء الناس علامات احداها انه لو ظهر من هو أحسن منه
 وعظا وأغزر منه علما والناس له اشد قبولا ، فرح به ولم
 يحسده (ولا بأس بالغبطة وهو ان يتعنى لنفسه مثل علمه)
 والاخرى ان الاكابر اذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل
 بقى كما كان عليه ، والاخرى ان لا يحب اتباع الناس له في الطريق
 والشئ خلفه في الاسواق الخ . .

١٠٤ - مراقبة الله في التوبة : ويقول الغزالي ان ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتزم من ثلاثة امور مرتبة اولها العلم وهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فاذا عرف ذلك معرفة محققة ييقن غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب وتأسف بسبب فوات المحبوب بفعله (يسمى ندما) وتتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة (دائمة) ، فاذا شلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث منه في القلب حالة اخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال (بالترك لكل محذور هو ملابس له واداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال) وبالماضى (بتلاقى مافات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر) وبالمستقبل (بالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبيب الى آخر العمر بان يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق ان لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى امثالها) . وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدمة

والترك كالثمره .

١٠٥ - والتوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة (العلم والندم والترك) ، وهى واجبة على الفور اذ معرفة كون المعاصى مهلكات هو واجب على الفور ، ووجوب التوبة عام فى الاشخاص والاحوال فلا ينفك عنه أحد البتة . ويقول الغزالى ان ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال تعالى « وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون » فعمم الخطاب ، ونور البصيرة أيضاً يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان ولا يتصور ذلك الا من عاقل ، واذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل (اذ كمال العقل انما يكون عند مقارنة الاربعين واصله انما يتم عند مراعاة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين) ، فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان (ووقع للقلب به أنس والف لاجالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل شيئاً فشيئاً الى التدرج فان لم يقو ولم يكمل سالت مملكة القلب للشيطان ، وأن كمل العقل

وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ورد
الطبع على سبيل القهر الى العباداة . فالغزالي يرى أن كل بشر فلا
يخلو عن معصية أما بجوارحه وأما بالهم بالذنوب بقلبه وأما بوسواس
الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله وأما بغفلة
وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله ، ويقول انه « لا يتصور الخلو
في حق الآدمي عن هذا النقص وانما يتفاوتون في المقدار فأما الاصل
فلا بد منه ، فاذا باغ كافرا فعليه التوبة من جهله وكفره ، واذا بلغ
مسلمنا تبعا لابيويه غافلا عن حقيقة اسلامه فعليه التوبة من غفلته
بتفهم معنى الاسلام ، فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والاسترسال
وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قلب حدود الله في المنع
والاطلاق والاتسكك والاسترسال » .

ويقول « ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى
اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن » انما التوبة على الله
للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (أى
عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويعمحو أثرها بمحسنة
بردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو) ،

٢٤٠

ومن ترك المبادرة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريثا وطبعاً فلا يقبل الحق ، والثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالحق .

١٠٦ - ويقول الغزالي أن التوبة إذا استجمعت شرائطها (بأن كانت صحيحة نصوحاً خالية من الشوائب) فهي مقبولة لا محالة ، لأن كل قلب سليم مقبول عند الله ، والقلب خلق سليماً في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تقوته السلامة بكسرة تهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، ونار الندم تحرق تلك الغيرة ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة . ولا يعني الغزالي من وجوب قبول التوبة الصحيحة على الله إلا ما يريد القائل أن العطشان إذا شرب وجب زوال العطش ، وليس في شيء من ذلك ما يريد المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى ، أي يرى أن الله خلق الطاعة مكفرة للعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلًا للعطش والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة

٢٤١

فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به ارادته الازلية
فواجب كونه لاحالة .

١٠٧ - والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف
لأمر الله تعالى في ترك أو فعل ، وتنقسم الذنوب الى صغائر
وكبائر ، ويرى الغزالي أن الكبائر على ثلاث مراتب :

(١) ما يمنع من معرفة الله

تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر (ومنه الشرك بالله وكفر
الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته) ويليه الاصرار
على معصية الله وتناول الدين بالاغواء والدعاء الى البدعة
والترغيب في المعاصي وتهيبج أسباب الجراءة على الله ، وبعضها
أشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى
حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره
ونواهيه .

(٢) ما يسد باب حياة

النفوس اذ يبقاها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة ،
فقتل النفس لاحالة من الكبائر وان كان دون الكفر ، لان
ذلك يصدد عين المقصود (التوصل بالدنيا للآخرة بمعرفة

٢٤٢

الله تعالى) وهذا يصدم وسيلة المقصود، ويتلو هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضى الى الهلاك حتى الضرب وبعضها اكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه يشوش الانساب ويبطل التوارث والتناصر ، ويحرك من الاسباب ما يكاد يفضى الى التقاتل (ولذا ينبغى أن يكون فى الرتبة دون القتل لانه يفوت تمييز الانساب وينبغى أن يكون أشد من اللواط لان الشهوة داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرتة) .
(٣) ما يتعلق بالأموال

فانها معاش الخلق فينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس ، ولذا اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر (كالسرقة واكل مال اليتيم وتفويتها بشهادة الزور واخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس - الخفية التى يحق بها باطلا او يبطل بها حقا فتغمس صاحبها

٢٤٣

في النار) . وأما أكل الربا فليس فيه إلا اكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد ان تختلف الشرائع في مثله ، واذا لم يجعل الغصب الذي هو اكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضى الشرع من الكبائر فأكل الربا اكل برضا المالك ولكن دون رضى الشرع ، والمصير الى ان اكل دائق بالخيانة او الغصب او الظلم (كخراج الناس من مساكنهم او بلادهم او اوطانهم) من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك انه غير داخل تحت الكبائر (لكن يعتبر ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم من الكبائر ان يأكل الربا وهو يعلم) .

أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بان يكون من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر (فلو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وانما شرب ماء نجس) . وأما القذف فليس فيه الا تناول الاعراض والاعراض دون الاموال في الرتبة ولتناولها مراتب وأعظمها تناول بالقذف بالاضافة الى فاحشة الزنا فهو يلحق بالكبائر

في حق من عرف حكم الشرع ، فاما من ظن ان له ان يشهد وحده أو ظن انه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحرفان كان فيه كفر فكبيره والا فعظيمة بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره (ويراد بالسحر كل كلام يغير الانسان وسائر الاجسام عن موضوعات الخلقة) . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا ايضا ينبغي ان يكون من حيث القياس في محل التوقف (وجملة عقوق الوالدين ان يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما وان سألاه حاجة فلا يعطيها او يسباه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما)

١٠٨ - ويقول الغزالي ان الكبير والصغير من المضافات ، ومامن ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى مادونه وصغير بالاضافة الى ما فوقه (فالمضاجعة مع الاجنبية مثلا اى اصابتها بكل شيء الا المسيس كبيرة بالاضافة الى النظرة صغيرة بالاضافة الى الزنا ، ويرى مع هذا ان الصغيرة تكبر باسباب منها : الاصرار والمواظبة (لان القليل من السيئات

إذا دام عظم تأثيره في اظلام القلب ، الا ان الكبيرة قلما
 يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من
 جملة الصغار كالمرودة والمقدمات في الزنا والشاحنة السابقة
 والمعاداة في القتل ، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم
 يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها ارجى من صغيرة واطب
 الانسان عليها عمره) ، واستصغار الذنب (لانه كلما استعظمه
 من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله
 لان استعظامه يصدر عن نفور القاب عنه وكراهته له وذلك
 يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الالف به
 وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ولذلك لا يؤخذ بما يجري
 عليه في الغفلة) ، والسرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها
 واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب
 الشقاوة ، والتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه واماله اياه ،
 واتيانه الذنب واطهاره بان يذكره بعد اتيانه او يأتيه في
 مشهد غيره (لان ذلك تحريك لرغبة الشر فيمن اسمعه
 ذنبه او اشهده فعله ، ويتفاحش الامر اذا رغب الغير فيه

وحمله عليه وهياً اسبابه له ، وكذلك يكبر الذنب - فلا تكفره الصلوات الخمس - اذا كان المذنب عالماً يقتدى به وفعله بحيث يرى ذلك منه) .

١٠٩ - ويقول الغزالي أن شرط صحة التوبة فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره الى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره يوم ما وما وينظر الى الطاعات ما الذى قصر فيه منها (فيؤديها) والى المعاصي ما الذى قارفه منها فينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد (كشرب خمر مثلاً) فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بقدر تلك السيئات (فيكفر شرب الخمر مثلاً بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب اليه) . وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلوب بمعصية فلا يحوها الانور يرتفع اليها بحسنة تضادها ؛ فلذلك

ينبغي ان تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها
وهذا التدرج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء
فيه اصدق والثقة به أكثر من ان يواظب على نوع واحد
من العبادات وان كن ذلك ايضا مؤثر في المحو ، واما مظالم
العباد ففيها ايضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله
تعالى نهى عن ظلم العباد ايضا، فما يتعلق منه بحق الله تعالى
نداركة بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والالتيان
بالحسنات التي هي اضدادها (فيقابل ايذاء الناس بالاحسان
اليهم، ويكفر غصب اموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر
تناول اعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالتناء على اهل الدين
واظهار ما يعرف من خصال الخير من اقرانه وامثاله، ويكفر
قتل النفوس باعتناق الرقاب الخ .) ثم اذا فعل ذلك كله لم
ينجحه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ، فليست حلهم أو
ليؤد حقوقهم ان قدر والا فليكثر من الحسنات حتى تفيض
عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين ارباب المظالم .
١١٠ - وظلمة المعصية تمنحى عن القلب بشيئين

حرقة الندم وشدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، فإذا فرضنا
تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والآخر بقي
في نفسه نزوع اليه وهو يجاهدها ويمنعها فايهما أفضل ؟
يقول الغزالي ان الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان :

(١) ان يكون

انقطع نزوعه اليها بفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد
أفضل من هذا اذ تركه بالمجاهدة دليل قاطع على قوة النفس
واليقين والدين (٢) ان يكون

بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة
اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع
فلا تهيج الا بالاشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء
الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة
وقمعها ، لان الجهاد ليس مقصودا ليعينه فاذا قهرته وحصلت
المقصود فقد ظفرت . ويقول الغزالي ان تصور الذنب
وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ والغافل لان ذلك
يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله .

وشرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته، ولكن ان كان شابا فينبغي أن يتفكر في لذة النظر الى وجه الله تعالى فقط ، ولا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالخمر والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة ، وكذلك تذكر الذنوب قد يكون محركا للشهوة فلابد من أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل) .

١١١ - ويقول الغزالي ان التائبين في التوبة على أربع

طبقات : (١) ان يتوب العاصي ويستقيم على

التوبة الى آخر عمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه الا الزلات التي

لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة (وهي أعلى رتبة) : (٢) نائب سالك طريق الاستقامة

في أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها الا أنه ليس ينفك عن

ذنوب تعثره لاعتن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجارى

أحواله من غير أن يقدم عزا على الاقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم

عليها لام نفسه وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها

التي تعرضه لها، وهذه رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى،
وهي أغلب أحوال التائبين) (٣) أن يتوب ويستمر
على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها
عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهرها الا أنه مع ذلك مواظب
على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القصد والشهوة، وانما قهرته
هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود (في حال قضاء الشهوة)
لو أفدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها ، وعند الفراغ يتندم
لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم
، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهته لما تعاطاه مرجو
فعمسى الله أن يتوب عليه (٤) أن يتوب ويجري مدة
على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن
يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك
الغافل في اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصيرين يخاف عليه سوء
الخالمة فان ختم له بالسوء شقي وان ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد
فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله
عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه .

١١٢ - والاصرار على الذنوب لا يكون لفقد
الايمان (إلا اذا كان كافرا شاكا في صدق الرسل) ، بل
يكون لضعفه إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد
من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ، ولكن يرى
الغزالي أن سبب وقوعه في الذنوب أمور نرى ذكرها مع
علاجها الذي رآه لها : (١) أن العقاب الموعود

غيب ليس بمحاضر والنفس جعلت متأثرة بالحاضر . ويرى
النزالي أن علاج هذا السبب هو الفكر بأن يقرر على نفسه
ان غدا لناظره قريب والمتأخر اذا وقع صار ناجزا ، ويذكر
نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في
الاستقبال . (٢) أن الشهوات الباعثة

على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال ، وقد قوى ذلك
واستولى عليها بسبب الاعتياد والالف ، والعادة طبيعة
خامسة والزروع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس .
ويرى الغزالي أن علاج هذا السبب هو معالجة اللذة الغالبة
عليه وتكليف نفسه تركها لينعم بنعيم الآخرة الدائم الخالي

٢٥٢

من الشوائب . (٣) أنه مامن مذهب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره ، إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير . ويرى الغزالي أن علاج التسويف في التوبة هو بالتمسك في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لأن المسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعلة لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم لأن الشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف إذ تنأ كد بالاعتیاد .

(٤) أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها ، فهو يذنب وينتظر العفو عنها انكالا على فضل الله تعالى . ويرى الغزالي أن علاج هذا السبب بأن يعلم أن انتظار عفو الله انتظار أمر ممكن ولكنه قد لا يمكن ولا يكون .

أما إذا كان المذهب كافراً ، فيرى الغزالي أن يعالج

٢٥٣

الكفر والشك بالاسباب التي تعرفه صدق الرسل وبعلم قريب يليق بحد عقله إذ ليس في العقلاء الا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا في كيفيته ، فان صدقوا فقد أشرف على عذاب يبقى أبد الآباد (من نار للبدن وألم في القلب أى نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة) وان كذبوا فلا يفوته الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدره فلا يبقى له توقف ان كان ماقلا مع هذا الفكر .

١١٣ - مراقبة الله في الرجااء والخوف : ويقول الغزالي أن الرجااء هو ارتياح القلب (ولذته) لا تتظار محبوب (متردد فيه غير مقطوع به) تمهات جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . والرجاء باعث بطريق الرغبة يضاده اليأس (الذي يمنع من التعهد ويصرف عن العمل ، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له بل هو باعث آخر بطريق الرهبة إذ هو تألم القلب واحترافه بسبب توقع مكروه في الاستقبال) . فاذا حال الرجااء

يورث طول المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيفما
تقلبت الاحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى
والتنعم بمناجاته ، فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان
عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني (لان الرجاء
انتظار لاجل حصول أكثر أسبابه ، فان كان الانتظار مع
انحرام أسبابه واضطرابها فيسمى غرورا وحقا ، وان لم
تكن الاسباب معلومة الانتفاء أى ان كان انتظارا من غير
سبب فيسمى تمنيا) .

١١٤ - ويقول الغزالي أن المحمود من الخوف
هو الاعتدال والوسط ، فاما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى
رقة النساء وهو يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث
البكاء وتقيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل
فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا
خوف قاصر قليل النفع ، وأما الفرط فانه الذى يقوى ويمجاوز
حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط وهو مذموم
أيضا لانه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض

والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل والموت ، فالمراد من الخوف هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كما لالانه بالحقيقة نقصان لان منشأ الجهل (لانه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لان الخوف هو الذى يتردد فيه) والعجز (لآنه متعرض لحدور لا يقدر على دفعه) فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الادى وانما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل مايجوز أن يوصف الله تعالى به ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى الله تعالى وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل ، فكل مايقدر فى هذه الاسباب فهو مذموم ، وأفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى فكل ماأبطل العمر أو العقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالاضافة الى أمور ، وان كان بعض أقسامها فضيلة بالاضافة الى أمور أخرى .

١١٥ - ويقول الغزالي ان الخوف لا يتحقق إلا

٢٥٦

بانتظار مكروه والمكروه اما أن يكون مكروها في ذاته
 (كالنار) واما أن يكون مكروها لانه يفضى الى المكروه
 (كالذى يغلب عليه خوف الموت قبل التوبة أو نقضها ونكث
 العهد أو ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو زوال رقة
 القلب أو الميل عن الاستقامة أو استيلاء العادة في اتباع الشهوة
 للمألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى الى حسناته التي اتكل
 عليها او البطر بكثرة نعم الله عليه او الاشتغال عن الله بغير
 الله او الاستدراج بتواتر النعم او انكشاف غوائل طاعته
 حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب او تبعات الناس
 عنده في الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء او ما لا يدري
 انه يحدث في بقية عمره او تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح
 قبل الموت والاعتذار بخلاف الدنيا او إطلاع الله على سريره
 في حال غفلته عنه او خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء
 او خوف السابقة التي سبقت له في الازل) ، فهذه كلها
 مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك
 سبيل الحذر عما يفضى الى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة

عليه فيواظب على الفطام عنها ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريره يشغل بتطهير قلبه عن الوسوس ، ... وهكذا الى بقية الاقسام .

١١٦ - ويقول الغزالي ان الخوف لا يتصور أن ينفك مؤمن عنه وان ضعف ويكون ضعف خوفاً بسبب ضعف معرفته وإيمانه ، والرجاء والخوف متلازمان لان كل من رجا محبوباً فلا بد وأن يخاف فوته ، ويجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشغل القلب بأحدهما ولا يلتفت الى الآخر في الحال لغفلته عنه ، وهذا لان من شروط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لاحالة ، فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لاحالة اذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكاً فيه ، وأحد طرفي الشكوك قد يرجح على الآخر بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظناً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما

على الآخر ، فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى « ويدعوننا رغبا ورهبا » .

١١٧ - ويقول الغزالي أن الخوف من الله تعالى

على مقامين : (١) الخوف من عذابه : وهو خوف صموم الخلق وهو حاصل بأصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الايمان ،

وانما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة (يوم ينفخ في الصور) وأصناف العذاب في الآخرة (من طول يوم القيلة وصفة العرق والمساءلة والمظالم وصفات النار) وبالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم (أو سماعها)

(٢) الخوف من الله : وهو خوف العلماء

وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الخوف المطلعين على سر قوله « ويحذركم الله نفسه » وقوله « اتقوا الله حق تقاته » (ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد لا يستند الى بصيرة فلا جرم يضعف

ويزول على قرب) . من عرف الله تعالى خافه بالضرورة
 فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف ، لان الله تعالى خلق
 أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا
 يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الازلى الى ما خلق له ،
 فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لاسبابها شاءوا أم أبوا ،
 ولذا يرى الغزالي أنه ليس للملنظم في أمواج القدر
 الا التسليم فيه واستقراء خفي السابقة من جلي الاسباب
 الظاهرة على القلب والجوارح « فمن يسرت له أسباب الشر
 وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا
 فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له
 بالشقاوة إذ كل ميسر لما خلق له ، وان كانت الخيرات كلها
 ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه
 على الله مقبلاً ، كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام
 على ذلك موثوقاً به ، ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات
 يزيدان نيران الخوف اشعالاً ولا يمكنها من الانطفاء »

١١٨ - ويقول الغزالي ان سوء الخاتمة على

٢٦٠

رتبتين احدهما أعظم من الأخرى، فأما لرتبة العظيمة الهائلة
فان يغلب على القلب عند الموت وظهور أهواله أما الشك واما
الجحود، الثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت
حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك
في نأيه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متمسك بغيره. وأما
الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين أحدهما
البدعة بأن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف
الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه إما برأيه ومعقوله ونظره
الذى به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يفتخر، وأما أخذ بالتقليد
من هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت
واضطرب القلب بما فيه، ربما ينكشف له في حال سكرات الموت
بطلان ما اعتقده جهلا اذ حال الموت كشف الغطاء ومبادئ
سكراته منه فقد ينكشف به بعض الامور، ففهما بطل عنده
ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه، لم يظن بنفسه
أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه الى رأيه الفاسد
وعقله الناقص، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له، اذ لم يكن

٢٦١

عنده فرق بين ايمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة
وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجاهل
سببا لبطلان بقية اعتقاداته أولئك فيها ، فان اتفق زهوق
روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود الى أصل الايمان
فقد ختم الله بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله
والزهد والملاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه
الا الاعتقاد الحق ، وكل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله
وكتبه وخاض في البحث فقد يعرض لهذا الخطر . وأما
السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الاصل ثم استيلاء حب
الدنيا على القلب ، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب
الله تعالى الا من حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في مخالفة
النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك
الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو
فيسود فلا يزال يطغى ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى
يصير طبعاً وريناً ، فاذا جاءت سكرات الموت استشعر
فراق الدنيا (الغالب حبها على قلبه) فيعلم ، ويرى ذلك من

٢٦٢

الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكرهه
ذلك من حيث أنه من الله فيخشى أن يشور في باطنه بغض
الله تعالى بدل الحب ، فاذا اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة
التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك
هلا كما مؤبدا .

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الاولى وليست مقتضية
للخلود في النار فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصي
وأن قوى الايمان والآخِر ضعف الايمان وان قلت المعاصي،
وذلك لان مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوة ورمسوخها في
القلب بكثرة الالف والعادة ، وجميع ما ألفه الانسان في عمره
يعود ذكره الى قلبه عند ميله فان كان ميله الاكثر الى
الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله ، وان كان
ميله الاكثر الى المعاصي غاب ذكرها على قلبه عند الموت،
فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا فيتقيد
بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى .

الفصل السادس

التفكير في خلق الله

١١٩ - معنى الفكر : ويقول الغزالي ان معنى الفكر هو احضار معرفتين في القاب (مثل أن الابقى أولى بالايثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا) ليستثمر منهما معرفة ثالثة (وهي في مثالنا أن الآخرة أولى بالايثار) فاحضار المعرفتين السابقتين للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا (غير أن التدبر والتأمل والتفكير عبارات مترادفة على معنى واحد ، والتذكروالاعتبار والنظر مختلفة المعاني وان كان أصل المسمى واحدا ، فالاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما الى معرفة ثالثة ، وان لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر وفائدته تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عنه ، وأما النظر

والتفكير فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة ،
 وفائدته نكتير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصله .
 « فخال حقيقة التفكير يرجع الى احضار معرفتين للتوصل
 بهما الى معرفة ثالثة ، وأما مرة التفكير فهي العلوم والاحوال
 والاعمال ، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير ، فإذا حصل
 العلم في القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت
 أعمال الجوارح .. فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ،
 وهذا هو الذي يكشف عن فضيلة التفكير وأنه خير من
 الذكر والتذكر لان الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير
 من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، ولذا
 قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

١٢٠ - مجازي الفكر : ويقول الغزالي أن الفكر قديمجري
 في أمر يتعلق بالدين (المعاملة بين العبد وبين الرب) وقد يمر في ما يتعلق
 بغير الدين ، وجميع أفكار العبد (الدينية) أما أن تتعلق بالعبد وصفاته
 وأحواله ، وأما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، ومحبة الله تعالى
 (كأى ماشق آخر) ينبغي أن لا يعدو نظره وتمكيده محبوه ،

وتفكره محصور في أقسام : (١) تفكر في صفات نفسه ليميز المحبوب منها (من المحبوب) عن المكروه ، وكل ما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات والمعاصي (التي تتعلق بالبدن واعضائه) والى باطن كالصناعات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب ، ويجب في كل واحد من المكاره التفكير في ثلاثة أمور : التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فان كان مكروها فثا طريق الاحتراز عنه ، وهل هو متصف بهذا المكروه في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه (وبعكس ذلك يكون التفكير في المحبوبات ليعمر القلب بالاخلاق الحمودة وينزه الباطن والظاهر) .

(٢) الفكر في جلال الله وفيه مقامان :

الفكر في ذاته وصفاته ومعاني اسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تتفكروا في ذات الله (لان العقول تتعير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر) أما النظر الثاني فهو النظر في أفعاله ومدائع أمره في خلقه .

١٢١ - وكل ما في الوجود بما سوى الله فهو فعله

٢٦٦

وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة
وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمته وقدرته
وجلاله وعظمته ، وقد ذكر الغزالي من ذلك : (١) خلق الانسان
من نطفة ، فقد قال تعالى « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقال
« قتل الانسان ما أكفره » من أى شيء خلقه ؟ من نطفة
خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء
أنشره ، ويقول الغزالي « أنت ترى النطفة القذرة كانت
معدومة فخلقها خالقها في الاصلاب والترائب ثم أخرجها منها
وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها
وقسم أجزائها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في
أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها
ورتب عروقها وأعصابها وجعلها سمعية بصيرة عالة ناطقة ،
وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها
والرأس جامعا لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن
شكلها ولونها وهيأتها ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها
وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها

صورة السموات مع اتساع اكشافها وتباعد أقطارها فهو
 ينظر اليها ، ثم شق اذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها
 ويدفع الهواء عنها وحوطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت
 فترده الى صماخها ولتحس بديب الهواء اليها وجعل
 فيها تحريقات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول
 طريقه فيتنبه من النوم صاحبها ، ثم رفع الانف من وسط
 الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم
 ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعه وأغذيته وليستنشق
 بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويح الحرارة
 باطنه ، وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجائنا وممر باعما
 في القلب ، وزين الفم بالاسنان لتكون آلة الطحن والكسر
 والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب
 صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم ،
 وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد
 منفذه وليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهيأها
 لخروج الصوت ، وخلق اللسان قدرة للحركات والنقطيعات

لتتطعم الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع
 بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الاشكال
 في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر
 ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات
 فلا يشابه صوتان ... ، ثم زين الرأس بالشعر والاصداغ
 وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر
 واستقواس الشكل وزين العينين بالاهداب ، ثم خلق الاعضاء
 الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لتضج
 الغذاء والكبد لاحتائه الى دم توصله العروق الى سائر
 أطراف البدن (يخدمها الطحال يجذب السوداء عنها والمرارة
 يجذب الصفراء والكلية يجذب المائية إذ تخدمها المثانة بقبول
 الماء ثم تخرجه في طريق الاحليل) .. ثم خلق اليدين وطولهما
 لتمتد الى المقاصد ، وعرض الكف وقسم الاصابع الخمس
 وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الاربعة في جانب
 والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع ... ، ثم خلق
 الاظفار على رؤسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها

حتى لا تنقطع .. ، ثم خاق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث .. ، ولما ضاق الرحم عن الصبي هداه السبيل حتى تنكس وتمحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ .. ، ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء هداه الى التقام الثدي ، ثم لما كان بدنه ضعيفا لا يحتمل الاغذية الكثيفة دبر له فى خلق الابن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وخلق الثديين وجميع فيهما الابن وانبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتش فى حلمة الثدي ثقباً ضيقاً حتى لا يخرج الابن منه الا بعد المص تدريجاً فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، وأخر خلق الاسنان الى تمام الحولين حيث يحتاج الى طعام غليظ يحتاج الى المضغ والطحن .. وأخرج تلك اللغات اللينة ، ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزاً عن تدبير نفسه .. .

(٢) ومن آياته أن خلق

الارض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا
يشواقى منها كبها وأرسى فيها الجبال واتادها تمنعها من أن تميد

واذا انزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وانبثت
عجائب النبات وخرجت منها اصناف الحيوانات ، واودع
المياه تحتها ففجر العيون واسال الانهار تجري على وجهها ،
واخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا
عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حى فأخرج به فنون
الاشجار والنبات مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات
والارابع والطبائع والتعهد والمنافع فهذا يغذى وهذا يقوى
وهذا يحى وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا يصفى الدم وهذا
ينوم وهذا يضعف ، وبعضه يستغنى ببث البذور فى
الارض وبعضه بفرس الاغصان وبعضه يركب فى الشجر
(٣) ومن آياته الجواهر

المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الارض
(٤) ومن آياته اصناف الحيوانات
وانقسامها الى ما يطير والى ما يمشى وانقسام ما يمشى الى ما يمشى
على الرجلين والى ما يمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما
يشاهد فى بعض الحشرات ، ثم انقسامها فى المنافع والصور

٢٧١

والاشكال والاخلاق والطباع (وتأمل فى عجائب النملة او النحلة او العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى الفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها الى حاجتها) . (٥) ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض وسعتها وعجائب ما فيها من الحيوانات والجواهر (وتأمل فى خلق الله اللؤلؤ وتدويره فى صدفه تحت الماء ، وانظر كيف انبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وتأمل ما عده من الغنبر واصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه . (٦) ومن

آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحبب الارض ولا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته (وانظر الى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء كيف امسك الله تعالى بهذه الحكمة السفن وكل مجوف فيه هواء - على وجه الماء لا يغوص فيه ولا يرسب ، لان الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلا ينفصل

٢٧٢

عن السطح الداخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف ، وانظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والبروق والرعود والأمطار والنلوج والشهب والصواعق (٧) ومن آياته ملكوت السماء وما فيها من الكواكب اذ قال تعالى « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها » ، فانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقرنها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تعب في سيرها بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى على السجل للكتب ، وتدبر عدد كواكبها واختلاف ألوانها ثم انظر كيفية أشكالها ، ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، وانظر ايلاج الله الليل في النهار والنهار في الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص ، وانظر إلى أمالته

٢٧٣

مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف
والشتاء والربيع والخريف ، وقد قال تعالى « ان في خلق
السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لا ولي
الا لباب » .

١٢٢ -

ويقول الغزالي بعد كلامه عن فوائد السفر
وأنه نوع حركة ومخالطة ، وان طريق الآخرة لا يمكن سلوكها الا
بتحسين الخلق وتهذيبه وأنه مامى السفر سفرا الا لانه يسفر عن
الاخلاق وان في مشاهدة آيات الله في أرضه فوائد للمستبصر انه
« مامن ذرة في السموات والارض الا ولها أنواع شهادات لله تعالى
بالوحدانية هي توحيدها ، وأنواع شهادات لصانعها بالتقدس هي
تسبيحها ولكن لا يفقهون تسبيحها لانهم لم يسافروا من مضيق
سمع الظاهر الى فضاء سمع الباطن ، ومن دكاكة لسان المقال الى
فصاحة لسان الحال ، ومن يسافر ليستقرى هذه الشهادات من
الاسطر المكتوبة بالخطوط الالهية على صفحات الجمادات لم يطل
سفره بالبدن ، بل يستقر في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع
نعمات التسبيحات من آحاد الذرات » ١١ ...

١٢٣ - ذكر الموت وما بعده : ويقول الغزالي
 أن طول الأمل له سببان أحدهما الجهل (إذ قد يعول
 الانسان على شبابه فيستبعد قرب الموت ، مع أن الموت
 ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة) والآخر
 حب الدنيا لانه اذا أنس بها وبشهوواتها ثقل على قلبه مفارقتها
 فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ،
 فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده - البقاء في الدنيا - « فلا
 يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج
 اليه من مال وأهل ودار وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ،
 فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن
 ذكر الموت فلا يقدر قربيه ، فان خطر له في بعض الاحوال
 أمر الموت والحاجة الى الاستعداد له سوف ووعد نفسه » ،
 فلا يزال يسوف ويؤخر على التدريج يوما بعد يوم الى أن
 تخطفه النية في وقت لا يتناسبه فتطول عند ذلك حسرته .

١٢٤ - ويقول الغزالي ان الألم في مسكرات
 الموت شديد ، والقياس الذي يشهد له هو أن كل عضو

لاروح فيه لا يحس بالالم ، فاذا كان فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الالم « فلو أصابته شوكة فالالم الذى يجده انما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة ، وانما يعظم أثر الاحتراق لان أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم ، وأما الجراحة فانما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه « لان (المتزوع مجذوب من كل عرق وعصب وجزء ومفصل ومن أصل كل شفرة وبشرة من الفرق الى القدم حتى قالوا ان الموت لاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض، ولذا انقطع صوت الميت وصياحه لان الكرب قد بالغ فيه وتضاعف على قلبه وبلغ كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جراحة ، أما

العقل فقد شوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الاطراف فقد ضعفها ، ويود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح ، فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقة و صدره وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر فيه التراب الذى هو أصل فطرته ، وترتفع الحدفتان الى أعلى أجفانه وتنقلص الشفتان ويتقلص اللسان الى أصله وترتفع الانثيان الى أعلى موضعهما وتخضراً نامله ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذه .. حتى يبلغ الى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويفلق درنه باب التوبة وتبدو له صفحة وجه ملك الموت - جميلة الصورة للمطيع ، قبيحة للعاصي ، ولن تخرج روحه مالم يسمع نعمة ملك الموت بأحد البشريين - إما بالجنة أو النار - . ولذا كان المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

١٢٥ - ومعنى الموت تغير حال فقط إذ الروح
 باقية بعد مفارقة الجسد أما معذبة وأما منعمة ، ويقول
 للغزالي أن معنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عنه
 بخروجه عن طاعتها ، فإن الاعضاء آلات للروح تستعملها
 حتى أنها لتبسط باليد وتسمع بالاذن وتبصر بالعين وتعلم
 حقيقة الاشياء بالقلب ، والقاب ههنا عبارة عن الروح ،
 والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ، فكل ما هو وصف
 للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها
 بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح
 الى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح الى الجسد في القبر
 ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث ، والله أعلم بما حكم به على
 كل عبد من عباده ، وانما تعطل الجسد بالموت يضاهي
 تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في
 الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالة العاقلة
 المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عاينها
 بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الاعضاء كلها . وكل

الاعضاء آلات والروح هي المستعملة لها ، ومهما بطل تصرفها
 في الاعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها
 الافراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات ،
 والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات
 وذلك لا يموت ، فالموت زمارة مطلقة في الاعضاء كلها وحقيقة
 الانسان نفسه وروحه وهي باقية ، وتغير حاله من جهتين
 احدهما أنه سلب منه جميع أعضائه وسلب منه أهله وولده
 وأقاربه وسائر معارفه وماله الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ،
 والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في
 الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً في النوم
 وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته
 (وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوى في سر قلبه وكان
 يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا) . . . وينكشف
 للمؤمن عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا
 بالاضافة اليه كالسجن والمضيق »

١٢٦ - ذكر الجنة : ويقول الغزالي عند كلامه

عن الجنة وأصناف نعيمها « تفكر في أهل الجنة وفي وجوههم
نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر
اليافوت الاحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض ، فيها
بسط من العبقري الاخضر متكئين على أرائك منصوبة
على أطراف أنهار مطردة بالخر والعسل ، محفوفة بالغلمان
والولدان ، مزينة بالخور العين من اخيرات الحسان كأنهن
اليافوت والمرجان لم يطعمهن أنس قبلهم ولا جان يمشين في
درجات الجنان ، اذا اختالت احداهن في مشيها حمل أعطاها
سبعون الفا من الولدان ، عليها طرائف الحرير الابيض ماتحير
فيه الابصار ، مكمللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان
غنجات عطرآت آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في
الخيام ، في قصور من اليافوت بنيت وسط روضات الجنان
قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب
وأباريق وكأس من معين يبيضاء لذة للشاربين ، ويطوف
عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا
يعملون في مقام أمين في جنات وعيون ، في جنات ونهر في

٢٨٠

مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها الى وجه الملك
الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم
قنرة ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم
يتعاهدون فهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها
ولا يحزنون وهم من ويب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون
ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا
وعسلا في أنهار أراضيتها من فضة وحصباؤها من مرجان
وعلى أرض ترابها مسك أذفرو نباتها زعفران ويعطرون من
سحاب ، فيها من ماء النسرين على كتمان الكافور ويؤتون
بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر
والياقوت والمرجان ..»



الباب الثاني

ما بينك وبين الناس

﴿ المعاشرة والالفة والصحبة ﴾

« عرفت رومي رومك من كلحت أنفسي نفسك ناله
الدرواح لها أنفسي طأنفسي الإجماد ، وانه المؤمنين
يعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وانه لم يلتقوا ،
يتعارفون ويتكلمون وانه نأت بهم الدار وتفرقت بهم
المنازل »
أوبس به عامر القرني

١٢٧ - فوائد المخالطة : أن من المقاصد الدينية والدينية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة ، وذكر الغزالي لذلك سبع فوائد نجعلها فيما يلي (١) التعليم والتعلم (إذ لا يتصور ذلك إلا بالمخالطة) ، والنفع (بان ينفع الناس بماله أو بيده فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة) والالتفاف (بالكسب والمعاملة) ، والتجارب والممارسة (ومن أهمها أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفاته باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة . وكل غضوب أو حقوق أوحسود اذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبئه ، وهذه الصفات ممالك في أنفسها يجب اما طتها وقهرها ولا يكتفى تسكينها بالتباعد عما يحركها) .

(٢) التأديب (بالارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل آذام كسر النفس وقهر الشهوات) والتأديب (بان يروض غيره بان يدعوهم الى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) ، ونيل الثواب وانالته (بمحضور الجنائز وعبادة المرضى والتهنئة على النعم وحضور العيدين وادخال السرور

٢٨٣

على قلوب المسلمين ،) هذا على وجوب حضور الجمعة والجماعة
في سائر الصلوات اذ لا رخصة في تركه الا خوفاً ضرر
ظاهر (والتواضع (اذ لا يقدر عليه في الوحدة ، وقد يكون
الكبر سبباً في اختيار العزلة)

(٣) الاستئناس والاياناس : وهذا يرجع الى حفظ النفس
في الحال (فؤانسة من لا تجوز مؤانسته حرام ، ويستحب
الاناس باللازمين لسمت التقوى ، واذا كان الغرض منه
ترويح القلب لتهميج دواعي النشاط في العبادة ، لان النفس
لاناألف الحق على الدوام ما لم تروح) .

١٢٨ - ولكن مع ذلك يرى الغزالي للعزلة ست

فوائد خلاصتها : التفرغ للعبادة اذ قال الله تعالى « وما خلقت الجن
والانس الا ليعبدون » ، ويدخل فيها الفكر والاستئناس بمناجاته
والاشتغال باكتشاف أمراره تعالى في أمر الدنيا والاخرة وملكوته
السموات والارض (والتخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض
الانسان لها غالباً ، والخلاص من شر الناس وأذن ينقطع طمعهم عنك
(اذ رضى الناس غاية لا تدرك ، ومن هم الناس كلهم بالحرمات

٢٨٤

رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا) ، وينقطع طمعك عنهم ، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى وأخلاقهم (اذ يسمى جالينوس النظر اليهم حمى الروح ، والانسان مهما تأذى برؤية ثقیل لم يامن أن يغتابه) .

١٢٩ - ولكن الغزالي مع هذا يقول أن «الحكم على العزلة مطلقا بالتفضيل تقيا واثباتا خطأ ، بل ينبغي أن ينظر الى الشخص وحاله والى الخيلط وحاله والى الباعث على مخالطته والى الفائق بسبب مخالطته ، ويتاس الفائق بالحاصل ، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الافضل ، ولذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة .»
١٣٠ - آفات اللسان : وأكثر ما يسيء المعاشرة ما يسميه الغزالي آفات اللسان ، وهى فيما بين الناس :

(١) المراء والجدال :

وحد المراء هو كل طعن فى كلام الغير (لتحقيره واطهار الكياسة) باظهار خلل فيه اما فى اللفظ أو فى المعنى أو فى قصد المتكلم (وتركه يكون بترك الانكار والاعتراض ، والتصديق بكل كلام سمعته ان كان حقا والسكوت عنه ان

كان كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين) . والجدال عبارة
 عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها ، والخصومة لجأج
 مذموم في الكلام (بالخصام - ابتداء أو اعتراضا - بالباطل
 أو بغير علم) ليستوفى به مال أو حق مقصود (ولكن
 لا يحرم على المظالم أن ينصر حجته بطريق الشرع من غير
 لد واسراف ومن غير قصد عناد وإيذاء ، والاولى تركه ،
 لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر
 وهي توغر الصدر) . (٢) الفحش والسب

وبذاءة اللسان واللعن : وهو منهي عنه إذ الفحش هو التعبير
 عن الامور المستقبحة (لاسما في ألفاظ الوقاع وما يتعلق
 به) بالعبارات الصريحة (مع أنه يمكن أن يكنى عليها ويدل
 عليها بالرموز) . والشتم والتعير هو ذكر عبارات يستقبح
 ذكرها . واللعن هو الطرد والابعاد من الله تعالى (وهو
 لا يجوز إلا مع الاجناس المعروفين بأوصافهم المبعدة منه -
 كالظالمين والكافرين والفاسقين لنمة الله عليهم - دون
 الاشخاص المعينين) ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان

(حتى الظالم) بالشر . (٣) المزاح : والمنهى

عنه الافراط فيه (لانه يورث كثرة الضحك التى تميمت القلب

وتورث الضغينة فى بعض الاحوال وتسقط المهابة والوقار) ،

وقد كان النبي الكريم يمزح ولا يقول إلا حقا ، وكان فى

مزاحه يتبسّم فتتكشف فيه منه ولا يسمع له صوت . أما

الاستهزاء وهى الاستهانة والتحقير والتنبية على العيوب

والنقائص على وجه يضحك منه (بالحاكاة فى الفعل والقول

أو بالاشارة والاباء) فحرام مهما كانت مؤذية ، وأما من

جعل نفسه مسخرة وربما فرح أن يسخر به فالسخرية فى

حقه من جملة المزاح . (٤) افشاء السر: وهو

حرام اذا كان فيه اضرار (بالمعارف والاصدقاء) ولثم إن

لم يكن فيه اضرار . (٥) الوعد الكاذب :

ومن وعد وهو على عزم الخلف ، أو ترك الوفاء من غير

عذر (لضرورة حاجزة) فهو منافق (فان عزم على الوفاء

فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا) .

(٦) الكذب فى القول

٢٨٧

واليمين : وبه يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره . ويرى الغزالي أن « الكلام وسيلة للمقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا » .

فلا رجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه ودم أحبه (كأن كان قد اختفى من ظالم وفي الصدق سفك دمه) وسره بلسانه وإن كان كاذبا ، وإن يصاح بين اثنين وبين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعده لا يقدر عليه فيعدها في المال تطيبا لقلبها أو يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبه إلا بانكار ذنب وزيادة تودد .

ولكن الحد فيه أن الكذب محذور « فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما

٢٨٨

وعند ذلك الميل الى الصدق أولى لان الكذب يباح لضرورة ،
 فان شك في كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليه .
 واذا اضطر الانسان الى الكذب فالتعريض أهون (ومثاله اذا
 طلبك من تكره أن تخرج اليه وأنت في الدار ، فقلت
 للخادم قل له اطلبه في مكان كذا ، اما اذا قلت ليس ههنا
 فكذب) . والمعاريض تباح بغرض خفيف كتطبيب قلب
 الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز ،
 وأما الكذب الصريح (كتغريب شخص بان امرأة قدر غبت
 في تزويجه) فان كان فيه اذى لقلب فهو حرام ، وان لم يكن
 الا لمطايبة فينقص من درجة ايمانه . ومن الكذب الذي
 لا يوجب الفسق ماجرت به العادة في المبالغة (كقوله طلبتكم
 مائة مرة) فان لم يكن طلبه الا مرة واحده كان كاذبا ، وان
 كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا ياثم وان لم تبلغ
 مائة . ومما يعتاد الكذب فيه أن يقال كل الطعام فيقول
 لاشتهييه وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح (٧) الغيبة :
 وهي أن تذكر أخاك بما يكرهه سواء ذكرته بنقص في

٢٨٩

بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه ،
وهي حرام لان فيها تفهيم الغير نقصان شخص معين - حتى
أو ميت - فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول
والإشارة والإيماء والغمز والكتابة والحركة . وكذلك
يحرم سوء الظن (أى عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ،
أما الخواطر والشك وحديث النفس فيعفى عنها) لان أسرار
القلوب لا يعلمها إلا الله ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوء
إلا اذا انكشف لك بعيان (تشاهده بعينك أو تسمعه
بأذنيك) لا يقبل التأويل ، وإمارة عقد سوء الظن أن يتغير
القلب عما كان فيفر عنه نفورا ما ويستثمله ويفتر عن مراعاته
وتفقده وإكرامه والاعتماد بسببه (لذلك اذا خطر لك
خاطر سوء على أخيك فينبغى أن تزيد في مراعاته تكذيبا
للسيطان وإغاظه له) ، وأما اذا أخبرك عدل فلا تصدقه
ولا تكذبه (كأنه لم ينكشف لك شيء) ، وينبغى أن
تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة
بسببه وكذلك ان كان من عادته ذكر مساوى الناس

(لأنه في الحقيقة ليس بعدل) . ومن ثمرات سوء الظن
التجسس (للتحقيق) .

والمرخص في ذكر مساوى الغير أغراض صحيحة
في الشرع لا يمكن التوصل اليها إلا به وهى ستة أمور :
التظلم والاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى الى منهج
الصلاح والاستفتاء (كأن يقول ظلمني أخى فكيف طريق
في الخلاص ، والاسلم التعريض بأن يقول ماقولك في رجل
ظلمه أخوه) وتحذير مسلم من الشر (على قصد النصح
للمستشير لا على قصد الوقعة) وأن يكون الانسان معروفا
بلقب يعرب عن عيبه (كالأعرج) وأن يكون مجاهرا
بالفسق (كالخنث والمجاهر بشرب الخمر ، وكان ممن يتظاهر
به بحيث لا يستنكف من أن يذكر ولا يكره أن يذكر
به ، ولكن لو ذكرته بغير مايتظاهر به أثمت) .

ويجب على المغتاب أن يتوب ويندم على ما فعله ليخرج به
من حق الله ثم يستحل المغتاب (وهو حزين في باطنه متأسف
على فعله) ليحله فيخرج من مظلمته ، وسبيله أن يبالغ في

الثناء عليه والتوحد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه (وإلا كان اعتذاره حسنة محسوبة له) . (٨) النسيمة : وهي إفشاء ستر الغير عما يكره كشفه سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الاعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً وتقصافاً في المنقول عنه أو لم يكن وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث (فكل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه الاماني حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، فمن رأى مثلاً من يخفى ما لا يذكره ، فإن كان مال المخفي فهو نسيمة ، وأما أن كان مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له) . واسم النسيمة إنما يطلق على الأكثر على من ينم قول الغير الى المقول فيه ، فإن كان الى من يخاف جانبه فهي سعاية .

وكل من حلت اليه النسيمة وقيل له أن فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في افساد أمرك أو في ممالاة عدوك أو تفجير حالك أو ما يجري مجراه ، فعليه ستة أمور : أن لا يصدقه وان ينهيه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله ، وان

يفضه في الله تعالى ، وأن لا يظن بالثائب السوء ، وإن لا يجمله ما حكى له على التجسس ، وإن لا يرضى لنفسه ما نهى الخاتم عنه ، ولا يحكى نهيته .

ومذموم كلام ذى اللسانين الذى يتردد (نفاقا) بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه (أى يجرى مع كل ربح فهو على قول ابن مسعود امعة) فينتقل كلام كل منهما الى الآخر ، أو يحسن لكل منهما ما هو عليه من المعادة لصاحبه أو يعد كلا منهما بأن ينصره ، أو يثنى على كل منهما فى معاداته وإذا خرج من عنده يذمه (ولكن قد يصادفهما صداقة ضعيفة ، فله أن يجامل كلا منهما صادقا وينبغى أن يسكت أو يثنى على الحق من المتعادين بين يدي عدوه) . (٩) المذح : وهو منهى

عنه فى بعض المواضع ، فالمذح قد يفرط فينتهى به الى الكذب ، وقد يكون به منافقا لانه بالمذح مظهر للحب وقد لا يكون مضمر له ولا معتقدا لجميع ما يقوله ، وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، وقد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز (اذ ينبغى أن يذم

ليغتم) ، ولذا يجب على المدوح ان يظهر كراهة المدح لانه
يضره إذ يحدث فيه كبرا واعجابا ، ويفرح اذا اثني عليه
بالخير ويرضى عن نفسه فلا يعمل ، فان سلم المدح
من هذه الآفات لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا اليه .

١٣١ - الغضب : وكذلك يسمى المعاشرة مع الناس
الكبر والغضب والحقد والحسد ، ويقول الغزالي في الغضب
ان الله خلق طبيعة الغضب من النار وغرزها في الانسان ،
فهما صد عن غرض من أغراضه ، اشتعلت نار الغضب وثارت
به ثورا فإنا يغلى به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى
أعلى البدن كما يرتفع النار ، فلذلك ينبسط الدم وينصب إلى
الوجه فيحمر اذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه
فان صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام
تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار
حزنا ولذلك يصفر اللون ، وان كان الغضب على نظير يشك فيه
تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب ،
ويقسم الغزالي الناس في قوة الغضب على درجات ثلاث

(١) التفريط يفقد هذه القوة أو ضعفها :

(وذلك مذموم) ، وثمره هذه الحمية الضعيفة قلة الانفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الاذى من الاخساء وصغر النفس والقهاء والخور في السكوت عند مشاهدة المنكرات والعجز عن رياضة النفس عند الميل الى الشهوات الخسيسة (اذلا تم الرياضة الا بغضبه على نفسه عند مياها اليها) . (٢) الافراط في الغضب : وهو أن يغلب حتى يخرج عن طاعة العقل والدين ولا يبقى للمرء معه بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، وسبب غلبته أمور غريزية (بأن يكون الانسان بفطرته مستعدا لسرعة الغضب لحرارة مزاج القلب) وأمر اعتيادية (بأن يخالط قوما يسمون طاعة الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبرهمة فيتشبه بهم فيقوى به الغضب ، وهذا جهل لانه مرض قلب ونقصان عقل وضعف نفس ، وآية ذلك أن المرأة والصبي والشيخ الضعيف وذو الخلق السيء والردائل القبيحة أسرع غضبا) . ومهما اشتدت نار الغضب أعمت صاحبها وأصمته عن كل

موعظة (إذ ينطفىء نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب) . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الاطراف وخروج الافعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الاشدق وتحمر الاحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة وتقبح الصورة . وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب وذلك مع تحبط النظم واضطراب اللفظ . وأما أثره على الاعضاء فالضرب والتهجم والمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فان هرب منه المغضوب عليه أوفاته بسبب عجز عن التشفى ، رجع الغضب على صاحبه فلطم نفسه ومزق ثوبه ويعدو عدو الواله المتحير وربما يسقط سريعا لا يطيق النهوض ، ويعتريه مثل الغشية فيضرب الجمادات والحيوانات ويشتمها ويخاطبها (كالجانين) ، وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا . وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد

٢٩٦

والحسد واضمار السوء والشمانة بالمسآآت والحزن بالسرور
والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء .

(٣) غضب محمود ينتظر اشارة العقل والدين
فينبعث حيث تجب الحمية وينطق حيث يحسن الحلم ، وهو
الوسط الحق بين الطرفين ، (فمن عجز عنه فليطلب القرب
منه فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغى أن يأتي
بالشر كله ، ولكن بعض الشر أهون من بعض) .

والعنف والحدة نتيجة الغضب والفظاظة (وقد ينتج
عن شدة الحرص) يضاده الرفق واللين ثمرة حسن الخلق
، ويقول الغزالي أن الممود وسط بينهما ، الا ان الرفق مفيد
في اكثر الاحوال وأغلب الأمور ، والحاجة الى العنف قد
تقع (نادرا) و « الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف
فيعطى كل أمر حقه ، فان كان قاصر البصيرة أو أشكل
عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله الى الرفق فان النجح
معه في الاكثر »

١٣٢ - القدر الذي يجوز التسفى به من الكلام : ويقول

الغزالي ان كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله
(وقد نهى النبي الكريم عن مقابلة التعجير بمثله نهى تنزيه
والأفضل تركه والعفو عنه لانه يجره الى ماوراءه ولا يمكنه
الاقتصار على قدر الحق فيه) والذي يرخص فيه أن تقول
من أنت وهل أنت الا من بنى فلان ، ياأحمق يا جاهل (إذ
ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق) ، ياسىء الخلق يا صفيق
الوجه يا ثالبا للأعراض (وكان ذلك فيه) ، ولو كان فيك حياة
لما تكلمت وما أحقرك في عيني بما فعلت وأخزأك الله
وانتقم منك ، فأما النيمة والغيبة والكذب وسب الوالدين
فحرام بالاتفاق .

والناس في الغضب أربعة : فبعضهم سريع الغضب
والرضى (وكذلك المؤمن) ، وبعضهم بطيء الوقود والحمود
وبعضهم بطيء الوقود سريع الحمود وهو الأحمدمالم ينته
الى فتور الحمية والغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الحمود
وهذا هو شرهم (إذ يحقد على الدوام) .

١٣٣ - الكبرياء : ويقول الغزالي ان أسباب الكبر

٢٩٨

الظاهر أربعة : العجب والحمد والحسد (وبها يكون التكبر عند الخلوة والاجتماع) والرياء (ولا يكون به التكبر الا لوجود ثالث خيفة من أن يقول انه افضل منه ، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه) . والتكبر يظهر في شمائل الرجل كصغر في وجهه ونظره شذرا واطرافه رأسه وجالوسه متربعا أو متكئا ، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الايراد وفي مشيته وتبختره وقيامه وجالوسه وحركاته وسكناته وفي تعاطيه لافعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله : فمنها التكبر بان يحب قيام الناس له ، وأن لا يمشي الا ومعه غيره يمشى خلفه ، وأن لا يزور غيره ، وأن يستكف من جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه ، وأن يتوق من مجالسة المرضى ، وأن لا يأخذ متاعه يحمله الى بيته أو يتعاطى بيده شغلا فيه ، وأن يطلب التجميل اذا رآه الناس ولا يبالي اذا انقرد بنفسه كيف كان (والمحبوب الوسط من اللباس للحديث القائل « ان الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » ، فقد يكون لبس الثوب الجيد الجميل ليس للسكر بل لميله الى النظافة أو لحبه للجمال اذ علامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته) .

١٣٤ - ويقول الغزالي أن إزالة الكبر فرض عين ، ويزول بالمعالجة بأمرين (١) استئصال أصله : وعلاجه بمجموع من علمي (بأن يعرف نفسه وربه وأنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا به تعالى) وعملي (بأن تكمل المعرفة بالعمل وتجرب في أفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس ، ويبانه أن يتمتحن النفس بامتحانات هي أدلة على استخراج مافي الباطن) فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه (٢) دفع العارض منه بالاسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره ، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليد اوقلبه بمعرفة أمرين : أن هذا جهل من حيث أنه تغرز بكمال غيره ، وان يعرف أن أباه القريب نطفة قدرة وجده البعيد تراب ذليل . ودواء التكبر بالجمال أن ينظر الى باطنه (اذ الرجيع في امعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبراق في فيه والوسخ في اذنيه والدم في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت أبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفتين ، ويتردد كل يوم الى

٣٠٠

الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من بطنه مالهو رآه بعينه
لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، هذا في حال توسطه .
وفي أول أمره خرج من الصلب ثم من الذكركمجرى البول ثم
من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القدر ، ولو
ترك نفسه يوما لم يتعهدا بالتنظيف والغسل ، لثارت منه
الانتان . هذا على أن قبح القبيح لم يكن اليه فينفيه ولا كان
جمال الجميل اليه حتى يحمد عليه ، وكيف ولا بقاء له بل هو في
كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب
من الأسباب) . فإذا كان التكبر بالقوة فيمنعه من ذلك ان
يعلم ماسلط عليه من العلل والأمراض (ولو سلبه الذباب شيئا
لم يستنقذه منه ، وتقتله بقة تدخل في أنفه أو نملة تدخل في
أذنه ، وتعجزه شوكة ، وحتى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في
مدة) ، والتكبر بالنفي وكثرة المال والاتباع والانصار وبولاية
السلطين والتمكن من جهتهم ، يزول بمعرفة ان هذه الاشياء
قد تزول . والتكبر بالعلم يدفع بمعرفة امرين ان حجة الله
على العالم آكد لانه لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم

٣٠١

(وقد مثله الله بالحمار يحمل اسفارا وبالكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث) وان يعرف أنه اذا تكبر صار ممقوتا بغضنا عند الله . والتكبر بالورع والعبادة سبيل دوائه أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد (فلا يذبح أن يتكبر على العالم ولو كان فاجرا غير عامل بعلمه لان الحسنات - والعلم منها - يذهبن السيئات ، ولا على المستور فلعله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله ، ولا على المكشوف حاله لأن ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغفل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك شديد عند الله) .

١٣٥ - الحفر وتأخر : ويقول الغزالي ان الغضب اذا

لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحق أن يلزم قلبه استئثاره والبغضة له والنفار عنه وان يدوم ذلك ويبقى ، والحق يشمر بثمانية أمور : الحسد (وهو أن تمنى زواله النعمة عنه وهذا من فعل المنافقين) وان تشمت بما اصابه من البلاء ، وان تهجره وتصارمه وتقطع عنه وان

٣٠٢

طالبك واقبل عليك، وان تعرض عنه استصغارا له (وهو دونه) ، وان
تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك سترو وغيره
وان تحاكبه سخريه منه ، واذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه ، وان
تمنعه حقه من قضاء دين او صلة رحم او رد مظلمة ، وكل ذلك حرام .
واقل درجات الحقد ان تستقله في الباطن ولا ينتهي قلبك عن بعضه
حتى تمنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام
بجاراته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعونة على المنفعة له او
بترك الدعاء له والثناء عليه والتحريض على بزه ومواساته ، فهذا كله
مما ينقص درجاتك في الدين ويحول بينك وبين ثواب جليل وان
كان لا يعرضك لعقاب الله ، والاولى ان يبقى على ما كان عليه ، فان
امكنه ان يزيد في الاحسان مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان فذلك
مقام الصديقين . فللمحقوق ثلاثة احوال عند القدرة : العدل وهو
ان يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة ونقصان ، او الفضل وهو
ان يحسن اليه بالعفو والصلة ، او الجور وهو ان يظلمه بما لا يستحقه .

١٣٦ - الحسر ومراتبه : ويقول الغزالي أنه اذا

أنعم الله على أخيك بفضعة (كدار حسنة أو امرأة جميلة
أو ولاية نافذة أو سبعة) فلك فيها حالتان : احدهما أن

٣٠٣

تكبره تلك النعمة وتحب زوالها (وهذه الحالة تسمى حسدا وهو حرام الا نعمة أصابها فاجر وهو يستعين بها على الفساد والايذاء) ، والثانية أن لا تحب زوالها ولا تكبره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها (وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وهي محمودة وتكون واجبة ان كانت النعمة دينية كالصلاة ، ومندوبا اليها ان كانت النعمة من الفضائل كالصدقات ، ومباحة ان كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح ، وهي وان كانت تنقص من الفضائل ولكن لا توجب العصيان) .

فمراتب الحسد كما يقول الغزالي أربع : أن يحب زوال النعمة عنه وان كان ذلك لا ينتقل اليه (وهذا غاية الخبث) أو أن يحب زوال النعمة اليه لرغبته في تلك النعمة (والذموم تمنيه عين ذلك لامثله) ، أو أن يشتهي مثلها ، فان عجز أحب زوالها كي لا يظهر التفاوت بينهما (وهذه فيها مذموم وغير مذموم) ، أو ان يشتهي لنفسه مثلها ، فان لم تحصل فلا يحب زوالها عنه (وهذا معفو عنه ان كان في الدنيا

٣٠٤

ومندوب اليه ان كان في الدين) .

١٣٧ - ويقول الغزالي ان أسباب الحسد مبعثة

(١) العداوة والبغضاء :

وهذا أشدها (إذ ربما يفضى الى التنازع والعقائل واستغراق

العمر في ازالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك السر ومايجرى

مجره) فان من آذاه شخص بسبب من الاسباب وخالفه

في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه

ورسخ في نفسه الحقد ، فان عجز المبعض عن أن يتشفى

بنفسه (وينتقم) أحب أن يتشفى منه الزمان (بالبلاياوزوال

النعمة) ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى،

وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من

عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه ، وغاية التقى أن لا يبغى وأن

يكبره ذلك من نفسه . (٢) التعزز : وهو أن

ينقل عليه أن يرفع عليه غيره ، فاذا أصلب بعض أمثاله

ولاية أو علما أو مالاخاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق

تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه .

(٣) الكبر : وهو أن

يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخذه ويتوقع منه الانقياد له والتابعة في أغراضه ، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويرفع عن متابعتة أو ربما يتشوف الى مساواته أو الى أن يرتفع عليه . (٤) التعجب كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة اذ قالوا « ما أنتم إلا بشر مثلنا » فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة وقالوا متعجبين « أبعث الله بشراً رسولاً » . (٥) الخوف من فوت

المقاصد ، وذلك يختص بمزاحمتين على مقصود واحد (كتحاسد خواص الملك في نيل المنزلة من قلبه للتوصل الى المال والجاه) . (٦) حب الرياسة وطلب الجاه بنفسه والتفرد (فالرجل الذي يغلب عليه حب الثناء ويستفزه الفرح بما يمدح به من أنه لا نظير له في فنه ، يحب موت من يشاركه في المنزلة ، أو زوال النعمة التي بها يشاركه فيها) . (٧) خبث النفس وشحها

٣٠٦

بالخير لعباد الله تعالى (فيفرح صاحبها باضطراب أمور
الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم) ، وهذا
خبث في الجيلة لاعن سبب عارض فتعسر ازالته .

١٣٨ - وقد يجتمع بعض هذه الاسباب او
اكثرها او جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك
ويقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاملة فتظهر العداوة
بالمكاشفة ، ويقول الغزالي ان الحسد انما يكثر بين قوم تكثر
بينهم هذه الاسباب ، ويقوى بين قوم تجتمع جملة منها فيهم
وتتظاهر ، وهى تكثر بين اقوام تجمعهم روابط يجتمعون
بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الاغراض ، اذ
لارابطة بين شخصين في بلدين متنائيتين فلا يكون بينهما
محاسدة وكذلك في محلتين ، فاذا تجاوزا في مسكن أو سوق
أو مدرسة أو مسجد تواردا (وتزاحما) على مقاصد تتناقض
فيها أغراضهما فيتور من التناقض التنافر والتباغض ومنه بقية
أسباب الحسد ، ولذلك ترى الاسكاف مثلا يحسد الاسكاف
ولا يحسد البزاز الاسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ويحسد

٣٠٧

لرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب ، ومنشأ
 جميع ذلك حب الدنيا (ولذلك لا يكون بين علماء الدين
 محاسدة لأن مقصدهم وغرضهم معرفة الله تعالى والمنزلة عنده
 - واجلها لذة لقائه - وهذه كلها لا ضيق فيها ولا ممانعة
 ولا مزاحمة ، فإذا قصد العلماء - أو الطلبة - بالعلم المال والجاه
 تماسدوا لأن المال اعيان واجسام اذا وقعت في يد واحد
 خلت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما
 امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر ،
 بينما العلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره من غير
 ان يرحل من قلبه ، والعلم لانهاية له ولا يتصور استيعابه)
 آداب المؤلف والصحبة : ويقضى الكلام عن الألفة
 مع الناس الكلام عن معاملة عمومهم وتواده لمعارفه منهم
 وحقوق صحبة وزوجه ، وقد تكلم الغزالي عنها في مناسبات
 مختلفة نجعلها ونجعلها فيما يلي :

١٣٩ - مقول الناس عموماً : ويقول الغزالي « ان حقوق
 المسلم هي : أن تسلم عليه اذا لقيت ، وتجيبه اذا دعاك ، وتسعته اذا

٣٠٨

عطس وتعوده اذا مرض، وتشهد جنازته اذا مات، وتبرقسه
اذا أقسم عليك، وتنصح له اذا استنصحك، وتحفظه بظاهر
الغيب اذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له
ما تكره لنفسك».

١٤٠ - وامايات الاكل في اجتماع او مشاركة : ويقول
الغزالي أنه يجب على الأكل في مجتمع أو مع شركائه ، أن
لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو
زيادة فضل (الا أن يكون هو المقتدى به فحينئذ ينبغي أن
لا يطول عليهم الانتظار اذا اجتمعوا للأكل) وان لا يسكتوا
على الطعام ، (ولكن يتكلمون بالمعروف) وأن يرفق
برفيقه في القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله
(فان قلل رفيقه نشطه ورغبه في الاكل وقال له كل ولا
يزيد في قوله « كل » على ثلاث مرات) وان لا يحوج رفيقه
الى أن يقول له كل ، ولا ينبغي أن يدع شيئاً مما يشتهي لاجل
نظر الغير له فان ذلك تصنع ، بل يجري على المعتاد (ويحسن
ان يقلل من اكله ايثارا لآخوانه أو يزيد فيه على نية المساعدة

وتحريك نشاطهم في الاكل ، وان لا ينظر الى اصحابه ولا يراقب أكلهم بل يفض بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبلهم (بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا الى أن يستوفوا ، فان كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقلل الأكل حتى اذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيرا ، فان امتنع لسبب فليعتذر اليهم دفعا للنجاسة عنهم) وأن لا يفعل ما يستقذره غيره (فلا ينفذ مثلا يده في الصحاف ولا يقدم اليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه ، ولا يغمس بقية اللقمة التي قطعها بسنه في المرقعة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات) .

١٤١ - آداب تقديم الطعام الى الزائرين : ويقول الغزالي أنه ليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فان ذلك من المفاجأة (ولكن يجب عليه اذا اتفق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل مالم يؤذن له ، فاذا قيل له كل نظر فان علم أنهم يقولونه على محبته اساعدهم فليساعد ، وان كانوا يقولونه

٣١٠

حياء منه فينبغي أن يتعمل ، أما إذا كان جائعا فقصده بعض
 اخوانه ليطعمه ولم يتر بص به وقت أكله فلا بأس به) .
 ويرى الغزالي أن آداب التقديم : ترك التكيف أولا وتقديم
 ماحضر (فان لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لاجل
 ذلك فيشوش على نفسه ، وان حضره ما هو محتاج اليه لقوته
 ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم) وللاثر أن
 لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور احضاره
 (فان خيره أخوه بين طعامين فليتهخير أيسرهما عليه) وان
 يشهى المزور أخاه ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه
 طيبة بفعل ما يقترح ، وأن لا يقول له هل اقدم لك طعاما
 بل ينبغي ان يقدم ان كان .

١٤٢ - آداب الضيافة : ويرى الغزالي ان مظاهر
 الآداب فيها ستة (١) الدعوة اذ ينبغي للداعي أن يعمله بدعوته
 الاقبياء دون الفساق ويقصده الفقراء دون الاغنياء على
 الخصوص ، وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته فان أهلهم
 يحاش وقطع رحم ، وكذلك يراعى الترتيب في اصدقائه

٣١١

ومعارفه فان في تخصيص البعض ابحاشا لقلوب الباقين ، وينبغي
 أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استعماله لقلوب الاخوان
 (اتباعا للسنة) ، وينبغي ان لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه
 الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ،
 وينبغي أن لا يدعو الا من يحب اجابته

(٢) واما الاجابة فسنة مؤكدة ولها خمسة
 آداب : ان لا يعز الغني بالاجابة من الفقير ، ولا ينبغي ان
 يمتنع عن الاجابة لبعد المسافة (او لفقير الداعي او لكونه
 صاعما) بل يحضر الا ان تحقق انه متكلف فليتعلم ، وان يمتنع
 من الاجابة ان كان الطعام طعام شبهة او كان يقام في الموضع
 مبكر كالتشاغل بنوع من اللهو وكذلك اذا كان الداعي ظالما
 او مبتدعا او شريرا او فاسقا او متكلفا ، وان لا يقصد بالاجابة
 قضاء شهوة البطن بل ينوى بها اكرام اخيه المأثر من وادخال
 السرور على قلبه وينوى صيانة نفسه عن ان يساه به الظن
 في امتناعه ويطلق اللسان فيه بان يحمل على تكبره وسوء خلق
 (٣) واما الحضور فادبه ان يدخل

الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الاماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بل ان اشار اليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة ، وان اشار اليه بعض الضيفان بالارتفاع اكراما فليتواضع ، ولا ينبغي ان يجلس في مقابلة باب الحجرة التي للنساء وسترهم ، ولا يكثر النظر (كاشره) الى الموضع الذي يخرج منه الطعام ، ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه اذا جلس ، واذا دخل ضيف للمبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة ويدت المساء وموضع الوضوء .

(٤) واما احضار الطعام ، فله آداب خمسة :
تعجيل الطعام فذلك من اكرام الضيف ، وترتيب الاطعمة (بتقديم الفاكهة اولان كانت فاللحم والتريد فالحلوة بعده يتخللها شرب الماء البارد) ، وان يقدم من الاوان الطفها حتى يستوفي منها من يريد ، ولا يكثر الاكل بعده ، وان لا يبادر الى رفع الاوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الايدي

عنها ، فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده
 مما استحضروه ، ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة
 يده قبل القوم بل ينبغي أن يكون آخرهم أكلا ، وأن يقدم
 من الطعام قدر الكفاية ، وينبغي أن يعزل أولا نصيب
 أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة الى رجوع شيء
 منه فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق في الضيفان
 ألسنتهم ، وما بقي من الأطعمة فليس للضيفان أخذه .

(هـ) فأما الانصراف فله ثلاثة آداب : أن

يخرج مع الضيف الى باب الدار وهو سنة ، وتعام الاكرام
 طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى
 المائدة ، وأن ينصرف الضيف طيب النفس وان جرى في
 حقه تقصير ، وأن لا يخرج إلا برضى صاحب المنزل واذنه
 ويراعى قلبه في قدر الإقامة ، واذا نزل ضيفا فلا يزيد على
 ثلاثة أيام فرما يتبرم به ويحتاج الى اخراجه .

١٤٣ — آداب المعاصرة الزوجيه : ويقول الغزالي

ان على الزوج مراعاة الاعتدال والأدب في أمور نجملها

فما يلي : (١) الوليمة (وهي مستحبة)
وحسن الخلق معها واحتمال الأذى منها ترجحاً عليها لقصور
عقلها والحلم عند طيشها وغضبها (لا كف الأذى عنها
فحسب) ، وأن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزج
واللاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء ، وأن لا يتبسط في
الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها الى حد يفسد
خلقتها ويسقط بالكلية هيئته عندها ، بل يراعى الاعتدال
فيه ، فلا يدع الهيبة والالتقياض مهما رأى منكراً ولا يفتح
باب المساعدة على المنكرات البتة بل مهما رأى ما يخالف
الشرع والمرواة تنمر وامتنع . ويجب عليه أن يعتدل في
الغيرة وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى
غوائلها ولا يبالغ في اساءة الظن والتعننت وتجنس البواطن ،
فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات
النساء ، وأما الغيرة في محلها فلا بد منها وهي محمودة ، والطريق
المغني عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج الى
الاسواق . ويجب أن يعتدل في النفقة فلا ينبغي أن يقتد

عليها في الاتفاق ولا ينبغي أن يسرف بل يقتصد ، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بما كُول طيب فلا يطعمهم منه فإن ذلك مما يوغر الصدور ، فإن كان مزمعا على ذلك فليأكله خفية بحيث لا يعرف أهله ، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته . (٢) أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى ، وأن يعرف آداب الجماع ومنها أن لا يقارب الرجل زوجته فيصيدها قبل أن يحادثها ويؤانسها ويقبلها ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه (ويكره العزل لأنه دفع لوجود الولد) ، وأن يعرف آداب الولادة وأهمها أن لا يكثر فرحه بالذكور وحزنه بالانثى (فانه لا يدري الخير له في أيهما ، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له أو يتمنى أن يكون بنتا ، بل السلامة منهن أكثر والحواب فيهن اجزل) ، وأن يؤذن في اذن الولد ، وأن يسميه اسما حسنا (فذلك من حق الولد) . وإذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل ينهن في العطاء والمبيت ،

٣١٦

وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار
 (٣) ومهما وقع بينهما خصام ، (من جانبها أو من الرجل)
 ولم يلتئم أمرهما فلا بد من حكيم أحدهما من أهله والآخر
 من أهلها لينظرا أمرهما ويصاحبا بينهما « ان يريد اصلاحا
 يوفق الله بينهما » ، وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة
 فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهرا (كما له حملها على الصلاة
 قهرا) ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها وهو أن يقدم
 أولا الوعظ والتحذير والتخويف ، فان لم ينجح ولاها ظهره
 في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت
 معها من ليلة الى ثلاث ليال ، فان لم ينجح ذلك فيها ضربها
 ضربا مبرحا بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظما ولا يدمي لها
 جسما ولا يضرب وجهها . والطلاق مباح ولكنه أبغض
 المباحات الى الله تعالى ، وانما يكون مباحا اذا لم يكن فيه
 إيذاء بالبطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير
 إلا بجناية من جازبها أو بضرورة من جانبها امتثالا لامر الله
 تعالى « فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا

٣١٧

حيطة للفراق ، فان سألت الطلاق بغير ما بأس في
آئمة ، وليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور: أن يطلقها
في طهر لم يجامعها فيه (لان الطلاق في الحيض أو الطهر
الذي جامع فيه حرام وان كان واقعا لما فيه من تطويل العدة
عليها ، فان فعل ذلك فليراجعها) وان يقتصر على طلقة واحدة
(لان الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها
الرجعة ان ندم في العدة ، وتجديد النكاح أن اراد بعد العدة)
وان يتلطف في التعامل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ،
وتطيب قلبها بهدية على سبيل الامتاع والجبر لما فجعها به
من أذى الفراق (اذ قال تعالى « ومتعوهن ») وأن لا يفشى
سرّها لا في الطلاق ولا عند السكاح .

ويقول الغزالي ان حقوق الزوج عليها: طاعة الزوج مطلقا في
كل ما طلب في نفسها مما لا معصية فيه (ومنها ان لا تحجب به فيقلاها
ولا تباعد عنه فينساها ، وان تقرب منه ان دنا منها ، وتبعد عنه ان
نأى عنها ، وتحفظ أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشم منها الاطياب ولا يسمع
الا حسنا ولا ينظر الا جيلا كما قالت أسماء خاتمة الغزالي :) وإثم

٣١٨

حقوق الزوج على زوجته الصيانة والسترو ترك المطالبة بمأوراء الحاجة والتعنف عن كسبه اذا كان حراما . ومن الواجبات عليها ان تلازم الصلاح والاتقياض في غيبة زوجها والرجوع الى اللعب والانبساط واسباب اللذة في حضوره ، ولا ينبغي ان تؤذيه بحال ، بل يجب عليها ان لا تهرط في ماله بل تحفظه عليه ، ومن آدابها ان تقوم بكل خدمة (التدبير المنزلى) فى الدار تقدم عليها .

١٤٤ - وباتباع الشرع الشريف فى اباحته للخاطب رؤية وجه خطيبته وكفيمها (على أن يكون معهم ما يحرم كأبيها أو أخيها) ، وفيما أوجبه من رضى الطرفين الصحيح ، وبما ذكرناه عن الغزالي فى العشرة الزوجية (وفى ص ١٧٣ وما بعدها) ، نرى أن الأخذ برأيه فيها يحقق سعادة الاسرة التى يتنادى المنادون بها ولا يجدون لندائهم سميعا ، هذه السعادة الحقة التى يشعر بها كل من عمل بما يراه الغزالي فى الاسرة ، تحفظ الزوج عن أن يعبت والزوجة عن أن تخادن ، يحفظ الحياة الزوجية عن الخيانة الزوجية من الرجل (ليله) أو من المرأة (لتعزى نفسها) ، ويخرج الاسرة عن الجحيم

الذى هى فيه ، ويجعل الأب والأم قدوة برة صالحة للفتى
والفتاة ، فلا يرى الفتى فى منزل أبيه من العيب أو أنواع
المراك أو المصادمة أو سوء التصرف ما يفيض له الحساسة
أو يحبب له الرذيلة أو يعطيه فكرة خاطئة عن الحياة الزوجية ،
ولا ترى الفتاة إلا مثلاً عالياً للزوجة الصالحة والا ما يرغبها
فى حياة امها الطاهرة العفيفة والا ما يبعدها عن التفكير فى
ان تبحث عن اللذات الروحية فى غير منزل ابيها وامها وبين
اخواتها واخوتها فيودى بها التفكير الى البحث عن اللذات
المادية فاستقط وتهوى . وانك لتعرف كيف تهوى الفتاة
إذ يغريها الفتى فيعجبها اغراؤه متغافلة عن كون الاغراء
اثماً إذ تهاجم عوامل غرامها حصون رشادها فتدكها ، ويبدأ
حبها له بطهارة قلب وحسن سجية ، إذ يبسم لها فتفتك
بها عيناه الجميلتان (كما تراهما) حين يبتسم فيشفقها حباً ،
ويعمها حبها الشديد له الى ان تراه ويراهما خلصة ، فالى ان
يتقابلان فى السينما خفية . . ، الى ان تخسر كل شيء لارضاءه
اذ تعده فاتح حصن قلبها ، وهى فى بدء أمرها لا تعرف انه

٣٢٠

يجب ان تصون عفتها اذ تكون طاهرة الحب لاتعرف
منه غير ابتسامة عذبة (في نظرها مرة في حقيقتها) من
حييها لاتعدى التعبير عن مكنونات فؤاديهما ، ويبدأ حبها
اشتاء رؤيته (للتمتع بهداياه وحديث ملقه) ثم يتبعه رغبة
منه في لس يدها وضغطه عليها ثم رغبة في ان يضمها اليه ...
ثم لاتبتعد ولا تعارض على ضمه اياها ، فيندفع نفسه المتقطع
من اندفاع شهوته الآتية التي لم تكن تعرفها ، وتلهب وجنتها
بنار حبه المصطنع ، فيعلو صراخها ويهبط .. يطوقها بذراعه ...
ضم .. قبلة .. ثم لاتدرك ما يحدث ، فتفريق وتحرم على نفسها
لقاءه محاولة نسيانه ولكنها تضعف فترجع الى وجدها الاول
بشدة أكثر من قبل .. ثم يتغلب عليها النذل فيسقطها في
الهاوية التي قدر لها !!

وأنتك نعرف كيف يفسد النقي بأهمال والديه اذ يجتمع
بوحش من وحوش الانس فيغريه ويتودد اليه ، واليوم
يقدم له السجائر فيتعودها ، وغدا يقدم له كأس الخمر فيشربها
وبين الكأس والطاس يفقد رشده وعقله ، فزول منه عوامل

٢٢١

الحياة شيئاً فشيئاً الى أن تصبح الرذيلة فيه مادة لا يستطيع
الاقلاع عنها ، وتؤدي به الحُر إلى أن يعبت بهذه ويتودد
لذلك ويتزين لفلانة ويصحب علانة ويفتك بمرجانة ، فيهمل
دروسه ان كان تلميذاً أو مصنعه أو متجرحه ، ويكون أحب
شيء له في الحياة أن يعبت وأحب وقت له وقت العبت ،
فيضيع عليه الدين والدنيا ، وقد يكون لمغريه شعاع نور
من ضمير أوله هو بصيص من ذكاء فيعمل ناجحاً ولكن
من زمرة الفاسدين المفسدين الضالين المضلين .

وأنت تعرف كيف يسمى الرجل فهم معنى الزواج
فيظنه قاصراً على الصلات البهيمية ولا يفهمه الا متصلاً بهذا
المعنى ، فاذا توم أن زوجته الحالية لا تشبعه من هذه الناحية
أو شافت نفسه لغيرها أو ماتت أو وجسد مادعاً للفراق
بينهما ، دفن العاطفة الأبوية لأولاد القديمة مع أمهم ونأى
بجانبه عنهم ، وجعل كل همهم للزوجة الجديدة ولما يدعو
لارضائها ، فيقسو على أولاده وبناته من القديمة ارضاء
للجديدة ، وقد يقسو الى حد اهمالهم فيضيع مستقبل الابن

٣٢٢

وتفسد البنت ، وقد يكون أرق قلبا من هذا فيكتفى بأن
يهب كل أمواله للجديدة وأولادها .

فلو حسن فهم معنى الحياة الزوجية لكان البيت جنة ،
ولتضامن الرجل والمرأة وتعاونوا على تهذيب الفتي والفتاة
ومراعاة أخلاقهما والعمل على إبعاد عوامل الفساد عنهما ،
ولفهم الرجل أن مايراد من الزواج معنى أسمى مما يظن ، وأن
ثمرة زواجه الأول ليس عدد كذا من مرات الوقاع بأشهرها
مع زوجته ، بل كم من البنات والبنين أثمر ، فيحافظ على
هذه الثمرة لتتبع وتزهر ، وليسقطها عطفه وحنانه وتعمده
وتهذيبه ، وليرعها في حياته ويسعى في أن يترك لها ذخيرة
مادية ومعنوية تعينها من بعده ، وأن هذه الزوجة الجديدة
لم يتزوجها الا لكي تزيد ثمرة ، فاذا أحبت منه أن تكون
فوق ثماره فلينبذها ويهجرها ، وإذا أظهرت حب تمييز ثمرتها
عن ثمار الأولى فليرد كيداً نائيتها في نحرها ، وإذا عملت
على أن يفقد ثماره عطفه وتعمده فليوقفها عند حدها وليفهمها
أن حبه لها انما ينميه عطفها على فلذات كبده ، لا لفرق

٢٢٣

بين أحد منها . . . ولقد رأينا كيف سما للغزالي بالصلة الزوجية وأخرجها عن أن تكون مجرد تسليم جسم لجسم لارضاء شهوة بهيمية الى أن تكون صلة روحية قوامها الحب والعطف والتعاون على تربية الأولاد وتهذيبهم ، وكيف أخرج الغني عن أن يكون غني المال الى غني النفس ، وعرفنا معنى رعاية الجمال وأن الجمال الكامل جمال الأخلاق والمعاني فالصور .

١٤٥ — مفهوم الزمومة والصحة : والاخوة عقد ينزل منزلة القرابة ، فاذا انعقدت (هذه الرابطة الروحية بين شخصين) تأكد الحق ، ولذا يرى الغزالي للأخ حقوقا عدة نجم عنها ونجملها فيما يلي : (١) أن يساهم أخاه في المراء والضراء : فيواسيه بماله ويعينه بالنفس في الحاجات ويقوم بها قبل السؤال (أو على الأقل عند السؤال والقدرة مع اظهار الفرح) ويقدمها على الحاجات الخاصة (وأدنى مراتب الاخوة أن يقوم بهامن فضلة ماله ، وثانيها أن ينزله منزلة نفسه ويرضى بمشاركته إياه في ماله حتى يسمح بمشاطرته فيه ، وأعلىها

٣٢٤

أن يؤثره على نفسه (٢) أن يقيّد بحقوقه جميع جوارحه :
 فينظر اليه نظر مودة يعرفها منه وينظر الى محاسنه ويتعالم
 عن عيوبه ولا يصرف بصره عنه في وقت اقباله ، ولا يرفع
 صوته عليه ولا يخاطبه إلا بما يفقه ، وأن يسكت عن ذكر
 عيوبه ومساوى أهله وأحبابه وولده في غيبته (لانها غيبة)
 وحضرته (لانه لن يجد منزها عن كل عيب) ، بل يتجاهل
 عنه ويسكت عن الرد فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه ،
 ويجب أن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه (فان الذي سبك
 من بلغك) وعن التجسس عن أحواله ، وإذا رآه في طريق
 أو حاجة لم يفتأحه بذكر غرضه من مصدره ومورده
 ولا يسأل عنه (قربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج الى أن
 يكذب فيه) ، ولا يثبت اسراره الى غيره البته ولا يفشى
 شيئا منها ولو بعد التقطيع والوحشة ، ويجب أن يسمع كلامه
 متلذذا بسماعه ومصداقه ، وان لا يقبض عن معاونته في كل
 ما يتعاطى باليد ، وأن يتواضع له (ويغالى الغزالي ويقول
 بمشيته وراءه مشى الاتباع لا مشى المتبوعين ولا يتقدمه إلا

بقدر ما يقدمه ولا يقرب منه الا بقدر ما يقرب به ويقوم له اذا
 أقبل ولا يقعد الا بقعوده ، ولكنه قصر هذا الى حين الاتحاد
 وطى بساط التكاف . وأقل درجات الاخوة أن يعامل أخاه
 بما يحب أن يعامله به ، فيجب عليه أن لا يسيء الظن به وان
 يجنبه (تبعاً للحديث الشريف) بحبه (لان القلوب تتجاري)
 ، ويتفقد في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن
 عارض ان عرض و اظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية
 عنه ، وان يدعو له ويظهر باسائه وأفعاله كراهة جملة أحواله
 التي يكرها ، والسرور بالتي يسرها ، وأن يدعو بأحب
 اسمائه اليه ، ويثنى عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند
 من يؤثر هو الثناء عنده (وكذلك الثناء على أولاده وأهله
 وصنعتة وفعله حتى على عقله وخلقه وهيشته وخطه وشعره
 وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط)
 ، وآكد من ذلك أن يبلغه ثناء من أثنى عليه مع اظهار
 الفرح ، وأن يشكره على صنيعه في حقه بل على نيته وان
 لم يتم ذلك ، وأن يذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض

لعرضه بكلام صريح أو تعريض ، وأن يعلمه وينصحه
وينبئه على عيوبه ويقبح القبيح في عينه ويحسن الحسن
(ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد ،
فإن علم أن النصيح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه الى
الاصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وذهب أبو ذر الى
الانقطاع ، وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا الى
خلاف ذلك لان الله تعالى قال لنبيه في عشيرته « فان عصوك
فقل اني برىء مما تعملون » ولم يقل اني برىء منكم .) أما زلته
في حقه بما يوجب ايمانه فلا خلاف في ان الاولى الصفيح
والاحتمال ، فان كان بحيث يؤدي استمراره عليه الى القطيعة
فالعتاب في السر خير والتعريض به خير من التصريح والمكاتبة
خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، ويجب أن يقبل
عذره مهما اعتذر اليه (كاذبا أو صادقا) وأن يحمل قوله وفعله
في حقه على وجه حسن . وقوام الاخوة الموافقة في الكلام
والفعل والوفاء والاخلاص ، ومعنى الوفاء الثبات على الحب
وادامته الى الموت وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه وأقاربه

٣٢٧

والمعلقةين به (ومراعاتهم وتفقدهم اوقع فى قلب الصديق من
مراعاة الاخ نفسه، اذ لا يدل على قوة الشفقة والحب الاتعديهما
من المحبوب الى كل ما يتعلق به) ومن الوفاء أن لا يتغير حاله
فى التواضع مع اخيه وان ارتفع شأنه (اذ الرفع على الاخوان بما
يتجدد من الاحوال لئوم) : وأن يخالفه فيما يخالف الحق
فى امر يتعلق بالدين ، وان يكون شديد الجزع من المفارقة
تفوق الطبع عن اسبابها ، وان لا يسمح بلاغات الناس عليه
وان لا يصادق عدو صديقه (٣) التخفيف وترك التكلف
والتكليف : وذلك بان لا يكلف اخاه ما يشق عليه
بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه عن ان يحمله شيئا
من اعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له
والتفقد لاحواله والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته الا الله
تعالى (فلا يجند فى صدره حاجة - الحسد والحقد - مما اوتى ،
واذا وجد فلا نقطاع اولى) ، وتامم التخفيف بطنى بساط التكلف
(بان يكون له عنده مرحب وهو السعة فى القلب والمكان
وله عنده اهل يأنس بهم بلا وحشة ، وسهولة فى ذلك كله و

لا يشتد عليه شيء مما يريد، ويشير لذلك قول الاعرابي لصاحبه
(أهلا وسهلا ومرحبا) ، ومن تنمة الانبساط وترك التكلف ان
يشاور اخوانه في كل ما يقصده ويقبل اشاراتهم ، فقد قال تعالى
« وشاورهم في الامر » ، وينبغي ان لا يخفى عنهم شيئا من اسراره .

١٤٦ - فالصديق روح أخيه ، بعينه ينظر وباذنه يسمع
وعن فكره ينطق ومنه يستمل ، ان هجع بخياله يحلم وان انتبه به
لاذ ، اذا استغنى عنه لم يزد في المودة واذا احتاج اليه لم ينقصه
لا يكلف له ، بل تحدث رؤيته ثقة به وتهدي اليه غيبته طمأنينة اليه ، هو
هو الا أنه بال شخص غيره ، قد أحله حبة القلب من قلبه ، وجرى مجرى
الدم في عروقه ، فأخلص له الثقة وصنى له المودة . هكذا فهم الغزالي
الصداقة ولذا رأى مارثي للصديق من حقوق ، ولكني بحثت عن
الوفاء بحق واحد منها فلم أجده الا في القليل ، ولذلك ناديت وأنادى
بالحب الصامت وهو أن تحب من تحب من الناس ولا تتصل به ، بل تعمل له
ما يعمل المحبون وتنتي عليه بما يثني المخلصون وتحمل له في قلبك
أعاني الصديقين . . . حتى اذا انتبه لك لم تجعله ينتبه . . . وبذا
يحرفك الشوق ، وبذا تطهرك الاسلام . . . وبذا تكون وفيا لجميع
الناس ، صديقا لهم كلهم ، وليس لك من بينهم أخ واحد (يجوز)
أن تسميه صديقا بالمعنى الذي أراده الغزالي (صدوق)

الباب الثالث

ما بينك وبين نفسك

= فقه النفس =

« لو راأه الشياطين يحومونه على قلوب بني

آدم لنظروا الى ملكوت السماء »

حديث شريف

١٤٧ - معنى مسون الخلق : الخلق كما يقول الغزالي عبارة عن « هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرما سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا » . فالغزالي يرى أن الخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وأنه كما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الانف والفم والخذ ، بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر (حسن الخلق بالفتح) ، فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق (بالضم) فاذا استوت واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق (مطلقا اذا اعتدلت جميعها ، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض يكون حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى خاصة) وهذه الاركان هي : (١) قوة العلم : بأن تصير بحيث يسهل بهادرك الفرق بين الصدق والكذب في الاقوال

٣٣١

وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح
 في الافعال الاختيارية (أى الحكمة اذ يحصل من اعتدالها
 حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى واصابة الظن
 والتفطن لدقائق الاعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن افراطها
 عند استعمالها في الاغراض الفاسدة يصدر الخبث والسكر
 والخداع والدهاء والجريرة ، ومن تقريطها يصدر البله والغفارة
 أى قسلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل — والحق
 بصحة المقصد وفساد سلوك الطريق — والجنون باختيار
 ما لا ينبغي أن يختار) . (٢) قوة الغضب : بأن
 يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة (أى
 الشجاعة بأن تكون قوة الغضب منقادة للعقل فتقدم لو كان
 عزمًا وتحمج لو كان حزمًا ، ويصدر منها الكرم والنجدة
 والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم
 الغيظ والوقار والتودد وأمثالها ، فان مالت للزيادة فهي تهور
 يصدر منه الصلح والبذخ والامتشاطة والتكبر والعجب ،
 وان مالت للضعف فهي جبن يصدر منه الجزع والمهانة والذلة

٣٣٢

والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق
والواجب) . (٣) قوة الشهوة : بتأديها

بتأديب العقل والشرع (أى العفة ، ويصدر منها السخاء
والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة
والظرف وقلة الطمع ، وهى شره ان مالت للزيادة وجود
ان مالت للنقصان ، ويحصل منه الحرص والشره والوقاحة
والخبث والتبذير - وهو أحمد من البخل - والتقتير والرياء
والهتكة والمجاة والعبث والملاق - وهو أهون من التكبر -
والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير
ذلك) . (٤) قوة العدل : وهى حالة

وقوة بها تسوس الفضب والشهوة وتحملها على مقتضى
الحكمة وتضبطها فى الاسترسال والانقباض على حسب
مقتضاها (وضدها الجور) .

١٤٨ - قبول الزمهرى للتغير : ويقول بعضهم
ان الاخلاق (وهى الصورة الباطنة) لا يتصور تغييرها ، كما
أن الخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها (فالتصير مثلا لا يقدر

٣٣٣

أن يجعل نفسه طويلا) ، وانه محال قطع التفات القلب الى
 الحظوظ العاجلة ، ولكن الغزالي يستنكر هذا ويقول
 « لو كانت الأُخلاق لا تقبل التغيير لبطأت الوصايا والمواظ
 والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنوا
 أخلاقكم » ، ويعزز استنكاره بإمكان تغيير خلق البهيمة اذ يمكن
 نقل الفرس مثلا من الجماح الى السلاسة والانتقاد (فبالك
 بالانسان ١٤) . ولكي يوضح لنا رأيه يقسم الموجودات الى
 ما وقع الفراغ من وجوده وكماله (وهذا لا مدخل للأدعى في
 اختياره في أصله وتفصيله كأعضاء البدن) والى ما وجد
 وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد له
 شرط قد يرتبط باختيار العبد (فالنواة لا نصير نخلا مثلا
 الا بالتربية ، ولا تصير تفاحا أصلا) فكذلك الغضب والشهوة
 لا نقدر على قمعهما أصلا ، ولكن لو أردنا سلاستهما وقودهما
 بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه ، ولا يعارضنا في هذا اختلاف
 الجبلات (اذ بعضها بطيء القبول وبعضها سريع وسبب
 هذا قوة الغريزة في أصل الجبلية وامتداده مدة الوجود

٢٣٤

فإن قوة الشهوة أصعب القوى واعصاها على التغيير لانها أقدم (وجودا) ، ثم ان الخلق قد يتأكد بكثره العمل بمقتضاه والطاعة وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا ، والناس فيه على أربع مراتب (١) الانسان المغفل الجاهل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح ، بل يثق كما فطر عليه خاليا من جميع الاعتقادات ولم تستم شهوته ايضا باتباع اللذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج الى معلم ومرشد والى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة ، فيحسن خلقه في أقرب زمان (٢) جاهل ضال قد عرف القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهوته واعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله ، فأمره أصعب من الاول اذ عليه قلع مارسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتقاد للفساد ، وأن يغرس في نفسه صفة الاعتقاد للصالح ، وهو بالجملة محل قابل للروضة أن انتهض لها بمجد وحزم

(٣) ضال فاسق يعتقد في الاخلاق القبيحة أنها

الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها ، فهذا
تأكد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه الا على الندور

(٤) جاهل وضال وفاسق وشرير نشأ على رأى
الفساد وتربى على العمل به فيرى الفضيلة في كثرة الشر
ويباهى به ويظن ان ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب .
ويرد الغزالي على قولهم أن الآدمي مادام حيا فلا ينقطع
عنه الغضب والشهوة وحب الدنيا وسائر هذه الاخلاق ،
ولذلك لا يمكن تغيير الاخلاق ، فقال « ان هذا غلط وقع
لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات
بالكلية ومحوها وهيات ، فان الشهوة خلقت لفائدة وهي
ضرورية في الجيلة فلوا انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان
ولوا انقطعت شهوة الوقاع لا تقطع النسل ، ولو انعدم الغضب
بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه وملكه ، ومهما بقى أصل
الشهوة فيبقى لاحتياج المال الذي يوصله الى الشهوة حتى يحمله
ذلك على امساك المال ، وليس المطلوب امادة ذلك بالكلية ،
بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين

الافراط والتفريط .

١٤٩ - سبب حسن الخلق : يرى الغزالي أن

حسن الخلق يحصل على وجهين (١) جود الهى وكمال فطرى بحيث يخاق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق (كسائر الانبياء) . ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب (فصدق اللهجة قد يكون طبيعيا وقد يحصل بالاعتقاد ومخالطة المتخلفين بهذه الاخلاق وربما يحصل بالتعلم) .

(٢) اكتساب هذه الاخلاق

بالمجاهدة والرياضة يحصل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . ولن ترسخ الاخلاق الدينيه فى النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الافعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشاق الى الافعال الجيلة ويتنعم بها ويكره الافعال القبيحة ويتألم بها ، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستئثار فهو النقصان ، ولا ينال كمال السعادة به ، والمواظبة عليها بالمجاهدة خير بالاضافة الى تركها ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله فى الرضى ، فان لم تستطع فى الصبر على ما تكره خير كثير » .

٣٣٧

ويقول الغزالي أن ميل النفس الى مقتضيات الشهوة غريب في ذاته وطارض على طبعه (لان غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل) فإذا كانت النفس بالعاده تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبايح فكيف لا تستلذ الحق لورودت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه ١٩ . ويستنتج من هذا ان الاخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الافعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، ويقول « ان هذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح (النفس والبدن) ، فان كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لاحالة ، وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والأمر فيه دور ، وضرب مثلاً عن أراد أن يصير الخلق في الكتابة له صفة نفسية حتى يصير كاتباً بالطبع ، فيتكلف الكتابة بمواظبته مدة طويلة على محاكاة الخط الحسن بيده ، فيرتفع منه أثر الى القلب ثم ينخفض من القلب الى الجارحة فيكتب الخط الحسن بالطبع .

١٥٠ - ولما كان الاعتدال في الاخلاق هو صحة

النفس كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، يقول
الغزالي « ان مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والاخلاق
الردية عنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال
البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبه
اليه ، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعثر
المعدة المضرة بعوارض الاغذية والاهوية والاحوال ، فكذلك
كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، فبالاعتیاد والتعاطيم
تكتسب الرذائل ، كما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا
وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس
تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق
والتغذية بالعلم ، وكما أن البدن ان كان صحيحا فشان الطبيب
تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضا فشانه جلب
الصحة اليه ، فكذلك النفس منك ان كانت زكية طاهرة
مهيبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة اليها
واكتساب زيادة صفاتها ، وان كانت عديمة الكمال والصفاء

فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها ، وكما أن العلة المغيرة
لاعتدال البدن الموجبة للمرض لاتعالج الا بضدها فان كانت
من حرارة فالبرودة وان كانت من برودة فبالحرارة ،
فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها؛ فيعالج
مرض الجمل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي ومرض الكبر
بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتبهى تكلفا ، وكما
أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتبهات
لعلاج الابدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرض
المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، وكما أن كل مبرد
لا يصاح لعله سببها الحرارة إلا اذا كان على حد مخصوص
ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة
والقلة ، فكذلك القائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها
من معيار ، وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى
أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ،
فان كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية ،
فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن وأحوال الزمان

٣٤٠

وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذى يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن طبيب الأجسام لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك طبيب النفوس لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . « أى ان الغزالى يرى أن الطريق الكلى سلوك مسلك المضادة لكل ماتهواه النفس » وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المساوى ، والاصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم ، فاذا عزم على ترك شهوة فينبغى أن يصبر ويستمر واذا نقض عزمه فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه (لأنه ان عود نفسه ترك العزم ألقت ذلك ففسدت) .

١٥١ - أمثلة لرياضة النفس : ولقد ذكر الغزالى فى عدة مواضع أمثلة شتى للعلاج بالمضادة ، فيقول مثلاً ان علة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة ، والمعرفة تريناً أنه لا محل

٣٤١

العجب لان كل ما يعجب به من فضل الله ، وانما هو (وهو من خلق الله واختراعه) محل لفيضان فضله تعالى وجوده ، فالاولى أن يعجب بمن اليه الامر كله . ويقول ان رياضة الكبر بالتواضع في غير مذلة ومن غير تخاس (أى العدل باعطاء كل ذى حق حقه) ، والسبيل في اكتسابه أن يتواضع لقربنه (بالتجنى له عن المجلس وأن يغدو الى باب الدار خلفه) ولمن دونه كالسوق (بالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال واجابة دعوته والسعى في حاجته وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه فلا يحتقره ولا يستصغره) .

ويقول ان علاج الغيبة هو المعرفة بان ينظر الى السبب الباعث له عليها ، اذ علاج العلة بقطع سببها ، فاذا كان سببها أن يشفى الغيظ بذكر مساويه (أو الحق اذا امتنع تشفى الغيظ) فعلاجه بان يقول أنه اذا أمضى غضبه عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه عليه (هو) بسبب الغيبة ، واذا كان سببها موافقة الرفقاء ومجاملتهم ومساعدتهم (بالتفكه بذكر الاعراض) فعلاجه بان يعلم ان الله تعالى يغضب عليه اذا

٣٤٢

طلب سخطه في رضا المخلوقين ، واذا كان سببها انه استشعر
من انسان انه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند
محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله
ويطعن فيه ليستقط أثر شهادته أو يبتدىء بذكر مافيه
صادقا ليكذب عليه بعده ، فعلاجه بان يعرف ان التعرض
لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين ، وهو بالغية
متعرض لسخط الله يقينا ولا يدري أنه يتخلص من سخط
الناس أم لا ، واذا كان سببها أنه نسب الى شيء فاراد أن يتبرأ
منه فذكر الذي فعله أو ذكر غيره بانه كان مشاركا له في
الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه من فعله (كقولہ ان اُكلت
الحرام ففلان يأكله) فعلاجه هو معرفة ان هذا العذر جهل
لانه يعتذر بالاقتداء بمن خالف أمر الله ولا يجوز الاقتداء
به ، فاذا كانت سببها ارادة التصنع والمباهاة برفع نفسه
وتركيها بتنقيص غيره والقدح فيه ، فعلاجه بان يعلم
أنه بما ذكره به أبطل فضله عند الله ، وهو من اعتقاد الناس
فضله على خـطـار (إذ رعا نقص اعتقادهم فيه اذا عرفوه

٣٤٣

يطلب الناس) فيكون قد باع اليقين بالوهم (على انه لو حصل له من المخلوقين اعتقاد الفضل لكثوا لا يغنون عنه من الله شيئا) فاذا كان سببها حسده لمن يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد أن يسقط ماء وجهه عندهم حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه ، فعلاجه معرفة أنه جمع بين عذابين عذاب الحسد وعذاب الآخرة وربما يكون حسده وقبحه سبب انتشار فضل محسوده ، فاذا كان سببها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة أو السخرية والاستهزاء ، فعلاجه بمعرفة أن قصده منه اخزاء غيره عند الناس باخزاء نفسه عند الله تعالى وعند الملائكة والنبين ، فاذا كان سببها انبعاث داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين بقوله ما أعجب ما رأيت من فلان ، فعلاجه (وهو في الخاصة) هو معرفة أنه أهلك نفسه ودينه بدين غيره أو بدنياء ، وهو مع ذلك لا يأمن أن يهتك الله ستره كما هتك بالعجب ستر أخيه ، فاذا كان سببها الرحمة (وهو في الخاصة أيضا) باغتمامه

٣٤٤

بسبب ما يبلى به بقوله مسكين فلان قد غني أمره وما ابتلى به ، فعلاجه غي معرفة انه ينقل اليه من حسنه ما هو أكثر من رحمته ، فاذا كان سببها الغضب لله تعالى (وهو في الخاصة) على منكر قارفه انسان اذا رآه أو سمعه فعلاجه بمعرفة أنه بالغية محبط أجر غضبه لله وتعرض لمقته ، اذ كان الواجب ان يظهر غضبه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء . وتطبيقا على قاعدة المضادة نرى أن حاصل رياضة الاسباب المهيجة للغضب عند الغزالي يرجع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر من قبورها ، ثم المواظبة على مباشرة أصدقاء هامة مديدة حتى تصير بالعادة مألوقة هينة على النفس ، فاذا انمحت عن النفس فتفسد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا من الغضب الذي يتولد منها ، وقد ظن الظانون أنه يتصور عو الغضب بالسكينة وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج ، وكلا الرأيين عند الغزالي ضعيف ، ويعمل ذلك بأن ما يحبه الانسان ينقسم الى ثلاثة

أقسام : (١) ما هو ضرورة في حق الكفاة كالأكل والشرب
 والمسكن والملبس وصحة البدن ، فلا يخلو الانسان من
 كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها . (بل ان
 غضبه لضرورة قوته وحاجته التي لا بد له منها في دينه ، فانما
 غضب لله) . والرياضة في هذا القسم ليست لينعدم غيظ القلب ،
 ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله
 في الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل ،
 وذلك ممكن بالمجاهدة وتكليف الحلم والاحتفال مدة حتى
 يصير خلقا راسخا ، فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك
 ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن (إلا إذا كانت القلب
 مشغولا بضرورة أهم منه ، فالشعبي مثلاً لم يغضب على
 من سبه لاشتغال قلبه بمهمات دينه ، فقال له أن كنت صادقاً
 فغفر الله لي ، وان كنت كاذباً فغفر الله لك) وكل ما يمكن
 كسر شهوته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن
 وينتهي ضعفه الى أن لا يظهر أثر في الوجه ولكن ذلك شديد
 جداً (٢) ما ليس ضرورياً لاحد من الخلق (كالجاه والمال

٣٤٦

الكثير والصيت وكل ماصار محبوبا بالعادة والجهل بمقاصد
 (الأمور) ويمكن التوصل بالرياضة الى الانفكاك عن
 الغضب على هذا القسم إذ يمكن اخراج حبه من القلب ،
 وذلك بان يعلم الانسان أن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود
 منها قدر الضرورة فيزهد فيها ويمحو حبها عن قلبه ، (وأنه
 كلما كانت الحاجات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة
 وأنقص) ، والرياضة في هذا تنتهى الى المنع من استعمال
 الغضب والعمل بموجبه (وهو أهون) ، وقد تنتهى الى قمع
 أصل الغضب (وهو نادر جدا) اذ يندفع الغضب بغلبة
 التوحيد أو حبه لله (اذ يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ)
 ويندفع أيضا بحسن الظن بالله وهو أن يرى أن الكل من
 الله ، والله لا يقدر الا ما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة في مرضه
 وجوعه وجرحه وقتله فلا يغضب ، وهذا الوجه غير محال ،
 ولكن غلبة التوحيد الى هذا الحد تغلب في أحوال مختطفة
 ولاندوم ، ويرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعا
 طبيعيا لا يندفع عنه ، وقد كان النبي الكريم يغضب حتى

ثممر وجنتاه ، ولكن كان الغضب لا يخرج به عن الحق (أى
كان يغضب لله على الخلق) (٣) ما يكون ضروريا ومحبوبا في
حق بعض الناس دون البعض لانه وسيلة الى الضرورى
والمحبوب (كالكتاب مثلا فى حق العالم فانه مضطر اليه
فيغضب على من يحرقه ويفرقه) ، وما صار ضروريا فى حق
شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه ، فالرياضة فيه
تنمى العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن حتى لا يشته
الآلم بالضرب عليه .

١٥٢ - وقد ذكر الغزالى أيضا أمثلة كثيرة فى
عدة مواضع للعلاج بمعجون العلم والعمل ، فىرى مثلا
معالجة الغضب علميا بستة أمور : أن يتفكر فى فضل كظم
الغيظ والتحمل (بتكليف الحلم) والعفو والحلم والاحتمال
فيرغب فى ثوابه فيمنعه عن التشفى والانتقام وينطفىء عنه
غيظه ، وأن يخوف نفسه عقاب الله بان يعضى عليه غضبه
يوم القيامة أحوج ما يكون الى العقوبة ، وان يحذر ما قبة
العداوة والانتقام وتشر العدو فى الدنيا لمقابلته والسعى

٣٤٨

فى هدم أغراضه والشامة بمصائبه ، وان يتفكر فى قبج صورته عنده (بان يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب) ، وان يكظم غيظه لله (مهما كان سبب الانتقام) ليعظم عنده ، وان يعلم أنه يوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه لانه بغضبه لجريان الشيء على غير وفق مراده كأنه يقول مرادى أولى من مراد الله . وأما العمل فان يقول بلسانه أعود بالله من الشيطان الرجيم ، فان لم يزل بذلك فليجلس أن كان قائماً وليضطجع ان كان جالساً وليقرب من الارض التى منها خلق (لان سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة) فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يفتسل .

ويرى أيضاً أن علاج حب الجاد مركب من علم وعمل ، أما العلم فهو أن يعلم أن كمال القدرة على اشخاص الناس وعلى قلوبهم (الذى لاجله أحب الجاه) لا ينبغي أن يترك به الدين الذى هو الحياة الابدية (لانه يستهدف للحسد وقصده بالايذاء وخوفه على الدوام على جاهه واحترازه من ان

تتغير منزلته في القلوب المترددة بين الاقبال والاعراض ،
فضلا عن أنه أن سلم وصفاف آخره الموت ويفوت الكثير في
الآخرة) ، وأما من حيث العمل فبالاعتزال ومباشرة أفعال
يلازم عليها حتى يفارقه الطمع ويأنس برد الخلق ويقنع بالقبول
من الخالق ، وهذا هو مذهب الملامتية اذ اقتحموا الفواحش
في صورتها ليسقطوا انفسهم من أعين الناس ، وهو غير جائز لمن
يقتدى به ، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له ان يقدم على محذور
لاجل ذلك بل له ان يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس .
ويعالج الغزالي أيضا الرياء بالعلم (يقطع الرغبة في الجاه
بان يعلم ما فيه من المضرّة بما يحيط عليه من ثواب الاعمال
والمنزلة عند الله وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال
من التوفيق وما يتعرض له في الآخرة من العقاب العظيم ،
فيقبل على الله قلبه) وبالعمل (بان يعود نفسه اخفاء العبادات
حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تتنازع
النفس الى طلب غير الله) فيشتغل بذكر الله ، فاذا خطر
الشيطان له - بمعرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلائهم - تنبه له

واشتغل بدفعه بما اعتقده من ان ذم الناس لا يزيد شئنا
ما لم يكتبه عليه الله ، وان الله تعالى هو المسخر للقلوب
بالمنع والاعطاء .

ويقول انه يجب على التائب اذا جرى عليه ذنب اما
عن قصد وشهوة غالبية او عن الملم بمحكم الاتفاق
أن يتوب ويندم ، فان لم تساعد النفس على العزم على
الترك لغلبة الشهوة ، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني
وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ويمحوها (بأن تكون الحسنة
في محل السيئة فيما يتعلق بأسبابها) اما بالقلب بالتضرع
الى الله في سؤال المغفرة والعفو واصمار الخيرات والعزم على
الطاعات ، واما باللسان بالاعتراف بالظلم والاستغفار لمحو
الذنب أو يخففه (وخيره ما كان بالقلب لا باللسان فقط) ،
واما بالجوارح بالصدقات وأنواع العبادات . ويرى الغزالي
عند كلامه عن الصبر أنه هو والعلم علاج الاصرار ، ويقول
بلزوم تقوية باعث الدين على باعث الشهوة (باطماعه في
الثمرات الدنيوية للمجاهدة ، وتعويده مصارعة باعث الهوى ،

٣٥١

وأن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده مراعيًا في ذلك التلطف والتدريج ، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ، ثم اذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداء بترك البعض من ذلك البعض الى أن يقنع بالبقية ، وهكذا يفعل شيئًا فشيئًا الى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه ، ولتضعيف باعث شهوة الوقاع مثلاً يرى الغزالى قطع مادة قوتها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه والاحتراز عن اللحم ، ثم يقطع أسبابه المهيجة له في الحال بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة (اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة) والفرار منها بالكلية ، ثم بتسلية نفسه بالمباح من الجنس الذى يشتهيه (وذلك بالنكاح) .

١٥٣ - واجب مريض النفس : ويقول الغزالى ان مريض الاخلاق يحتاج الى التصديق بأمور : أولها الايمان بأن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة والشقاوة سببا هو المعصية (كما ان للمرض والصحة اسبابا يتوصل اليها بالاختيار على ما رتبته

٣٥٢

مسبب الاسباب) ، وثانيها العلم بصدق الرسول والايمان بما جاء به
 (كما انه لا بد ان يعتقد المريض في طبيب معين انه عالم بالطب حاذق
 فيه صادق فيما يعبر عنه) ، وثالثها الاحتماء الى آيات التحذير من
 اتباع الهوى وارتكاب الذنوب وانها يتعجل في الدنيا شؤمها في
 غالب الأمر حتى انه قد يضيق على العبد رزقه وقد تسقط منزلته
 من القلوب ويستولي عليه اعداؤه ويفقد المناجاة ويسود وجه قلبه
 بالخوض في الذنوب (اذ لا بد ان يصغى المريض الى الطبيب فيما
 يحذره عنه من الاسباب المضرة على الجملة حتى تكون شدة الخوف
 باعثة له على الاحتماء) ، ورابعها العلم بذنبه المخصوص وبالذنوب
 جميعا وآفات وكيفية التوصل الى الصبر عنها وتكفير ما سبق منها
 (ان يجب على المريض ان يصغى الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما
 يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه اولا تفصيل ما يضره من افعاله
 واحواله وما كوله ومشروبه ، وليبين له العلاج الخاص لهذه العلة
 الخاصة) . ولذا يرى الغزالي في موضع آخر ان الطريق الذي يعرف
 به الانسان عيوب نفسه أحد أربعة طرق: أن يحكم في نفسه استاذاً
 بصيراً بعيوب النفس ويتبع اشارته في مجاهدته ، أو أن يطلب صديقاً

صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه لينبهه على ما كره
من أخلاقه وافعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ، أو أن يستفيد معرفة
عيوب نفسه من ألسنة أعدائه (فان عين السخط تبدى المساويا)
أو أن يخالط الناس فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه .

١٥٤ — مائواً منه به وما نفعي منه : ويرى الغزالي
ان أخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر (أى
ادراكاته علوما اما على سبيل التجدد بالفكر ، واما على سبيل
التذكر اذ تخطر بعد أن كان القلب خافلا عنها) ، فتحرك
لانها مبدأ الافعال — الارادات والرغبات فالعزم فالنية
فالاعضاء ، وتنقسم هذه الخواطر الى الهام محمود يدعو للخير
سببه الملك ، والى وسواس مذموم يدعو الى الشر سببه
الشیطان ، فيتجاذب القلب بين التوفيق والاعواء ، وهو
بأصل الفطرة صالح لقبول آثار كل منهما صلاحا متساويا
(وانما يرجح أحد الجانبين باتباع الشهوات أو الأعراض
عنها) ، ولكن لانه لا يخلو عن صفات البشرية المتشعبة
عن الهوى ، لم يخل عن أن يكون للشیطان فيه جولان

بالوسوسة ، ولذا كانت حمايته عنها فرض عين على كل عبد مكلف .

ويقول الغزالي ان للقلب أربع أحوال قبل العمل بالجراحة : الخاطر فالميل فالاعتقاد فالهم ، فالخاطر كالموخطر له منلا صورة امرأة أى حدثته نفسه بها ، فاذا هاجت الرغبة الى النظر تبعاً لحركة الشهوة التى فى الطبع كان الميل ، وهى أمور اضطرارية لا تدخل تحت الاختيار تهجس فى النفس ولا يتبعها عزم على الفعل ، ولذا يرى الغزالي أنه لا يؤاخذ به ، فاذا حكم القلب واعتقد أنه ينبغى أن ينظر اليها (ما لم يمنعه حياء أو خوف أو تأمل من الالتفات) فيؤاخذ عنده بالاختيارى منه ولا يؤاخذ بالاضطرارى ، فاذا هم بالفعل بتصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه ، فيرى الغزالي أنه مؤاخذ به ، إلا أنه ان لم يفعل (اذ قد ينعدم بعد الجزم فيترك العمل) فان كان قد تركه خوفاً من الله تعالى ونداماً على همه كتبت له حسنة (لانه رجح جهده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل) ، وأن تعوق الفعل بعائق

٣٥٥

أو تركه بعذر عارض لاخوفاً من الله تعالى ، كتبت عليه
 سيئة (لأن همه فعل من القلب اختياري) ، وبذا وفق
 الغزالي بين مايدل على المؤاخنة كقوله تعالى « ان تبدوا
 ما في أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء
 ويعذب من يشاء » وقوله « ان السمع والبصر والفؤاد ،
 كل أولئك كان عنه مسئولا » ، وما يدل على العفو كقول
 النبي الكريم « عني عن أمتي ماحدثت به نفوسها ، ما لم تسلكم
 به أو تعمل به » .

١٥٥ - الخوف أفضل أم الرجاء ؟ : ويقول الغزالي

أن فضل الخوف والرجاء بحسب داء القلب الموجود ، فإن
 كان الغالب على القلب داء الامن من مكر الله تعالى والاعتزاز
 به وعصيان أمره فالخوف أفضل ، وان كان الاغلب
 هو القنوط من رحمة الله (فترك العباداة أو أسرف في المواظبة
 عليها حتى أضر بنفسه وأهله) فالرجاء أفضل (وكذلك أن
 نظر الى المطلق لان الرجاء مستق من بحر الرحمة والخوف
 من بحر الغضب) ، ولان المعاصي والاعتزاز على الخلق

أغلب ، يجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل ، وينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح - لأنه يراد لغيره - ، فالتقى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن (لان الخوف يراد للعمل وقد انقضى وقته ، لان الشرف على الموت لا يقدر عليه ثم لا يطبق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته) ، « وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ومحبه اليه ربه الذى اليه رجاءه ، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا الا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله : فان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وغاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى .

ويقول الغزالي « أن حال الرجاء يغلب باستقراء الآيات والاخبار والآثار وبالاختبار بان العناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده حتى لم يرض لهم أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة ، كيف يرضى بانسياقهم الى الهلاك المؤبد ، بل اذا نظر الانسان نظارا شائيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له

أسباب السعادة في الدنيا حتى أنه ينكر الانتقال من الدنيا
بالموت وان أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلاً أولاً
يحشر أصلاً ، فليست كراهمهم للعدم إلا لأن أسباب النعم
أغلب لا محالة ، وانما الذي يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه الا
في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ، فاذا كان حال أكثر
الخلق الغالب عليه الخير والسلامة ، فسنة الله لا تجدها
تبديلاً ، فالنائب أن أمر الآخرة هكذا يكون لان مدبر
الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف
عليهم ، ومن الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة وسنتها
في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، وليذكر قوله تعالى
« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من
رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً أنه هو الغفور الرحيم » .

١٥٦ — خاتمة البحث : وقبل أن أختم حديث
الغزالي الروحي يجب على أن أذكر أني أردت به اعطاء القارئ
فكرة كاملة مختصرة للثقافة الروحية في كتابه « احياء علوم
الدين » ، لا وفق بين دفع القصور والتقصير في اهمال قراءته

على كبر قيمته وبين توفير الوقت على الراغبين فيها ولا كبر حجمه وصعوبته ، وعنيت كل العناية بالمحافظة على معانيه حتى حافظت في كثير من الأحيان على نفس لفظه ولم أخرج عن هذا الا فيما كان جرياً على نهج البحث أو سبيل الاستنتاج ، واجتهدت - لكي لا أخرج عن الغرض الذي أردته - في أن أجرد الحديث عن آرائى الشخصية فوفقت لهذا الى حد كبير ، حتى انى جذبت عنان يراعى وفكرى فلم يخط في هذا الكتاب الا بضع خطى قليلة ظاهرة أردت بها ايضاح فكرة ضامضة أو التحدث عن وجهة نظرى في موضوع من الموضوعات التى رأيت وجوب عرضها لتكون مكملة أو موضحة للحاجات الروحية والاجتماعية فى هذا العصر مع نمشها مع روح الاسلام ومع المبادئ الروحية للغزالى نفسه . واللذة الروحية التى أردنا أن يشعر كل انسان بها هى المعرفة ، والغزالى قد أنار لنا الطريق بما حدثنا ، ونستطيع أن نوجز الحديث عن هذه اللذة بأن قد كراتها لذة واحدة متشعبة الى عدة فروع ، وهى لذة معرفة الله ، فن حديثه

عرفنا معرفة صادقة لما يجب أن نعرفه عن الله ، وعرفنا معنى توحيدِهِ والفناء في هذا التوحيد في التوكل عليه وحد هذا التوكل الذي أرادَهُ الله لعباده ، وعرفنا حب العبد لله ومعنى حب الله للعبد ومظاهر هذا الحب ، وعرفنا الأنواع المختلفة التي تعبدها الله بها وما يريد سبحانه من تقوية قلوبنا وتصفيته وتغذية أرواحنا وتنميتها بالإيمان ، وعرفنا كيف تخلص لله ونراقبه ونخافه ونرجوه وإذا أذنبنا ماسبيل التوبة للرجوع إليه ، وفي حياتنا كيف نفكر في خلقه ، وعند موتنا ماذا يجب أن نستحضره من الإيمان به ووجهه .

فإذا ما شعرنا بهذه اللذة شعرنا بلذة قوة الإيمان ولذة العمل على نجاة نفوسنا وتطهيرها بحب الجلال والخير والجمال ، وتغذية أرواحنا في الصلوات المختلفة بين الناس وما يجب علينا أن لا نبخسهم أشياء هم وأن لا نتعرض لا يذائهم بسوء ظن أو حقد أو حسد أو فعل شر لهم ، فنشعر بلذة حب الناس ولذة العطف عليهم ولذة الاتصال القلبي بمشاركتهم في الفرح بسراهم والألم لضرأهم ، فإذا وصلنا إلى هذه الدرجة فنحن

لا بد واصلون الى اللذة الروحية بفهم معنى الجمال ومداه
 وأنواعه ، وبالصلة الروحية بين صديق نواخيه أو زوجة
 ترتبط برباط مقدس شرعى بها ، أو قريب تربط بيننا لحة
 النسب ، أو وطني تربط رابطة الدم ، أو انسان تربط بيننا
 وبينه رابطة الانسانية وكونه عبد الله خلقه كما
 خلقنا وله قلب وروح وجسم كما لنا ، ويجب عليه أن
 يقوى روحه ويستنصر بدنه وقلبه لخدمة هذه الروح والسمو
 بها كما يجب علينا . وإذا فهم الانسان هذا واستفتى قلبه
 المؤمن وعمل بما يوحى اليه ضمير الايمان وبصيرة العقيدة
 الخالصة القوية ولوامع الحق فى القلوب ، رغب فى تقوية
 هذه اللذات فلجأ لفقته النفوس فراض نفسه على حب
 الخير وعمل على أن يخلص صلته بربه من الشوائب وصلته
 بالناس من الظلم وصلته بنفسه من ايذائها . وبذا تلخص
 روحانية الغزالي فى ايمان الانسان بكل شيء فى الحياة ، بان
 يكون قويا فى حبه لربه (لانه أصل نعمة الحياة) وللناس
 (لانهم صنع الله) ولصحبه (لانهم قطعة من روحه) ،

ومظهر حبه لله الإيمان القوى والعبادة والتوكل والتوحيد ،
والحب والاخلاص والمراقبة والتوبة والرجاء والخوف ،
ومظهر حبه للناس العطف عليهم والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر والاحسان لهم وعدم ابدائهم وبذل الجهد ما أمكن
تخليهم في دينهم ودنياهم ، ومظهر حبه لآخوانه أن يعاملهم
كأنفسه يحب لهم ما يحب لها ويكره لهم ما يكره لها ،
وحسب الانسان كمالاً أن يزن الأمور بالقسطاس بأن
يكون عادلاً في معاملاته المادية ، ورحيماً في معاملاته المعنوية ،
مخلصاً في معاملاته الروحية ، وحسبنا أن نصل بالقارىء
الى هذه الدرجة من الرقي الروحي ، والسلام

محمود علي قراعة

الحامي

غفر الله له ووفقه للخير

في ٦ مايو سنة ١٩٢٥

(تم بحمد الله ومعونته وحسن تديره)

الفهرس

الموضوع وبيانه برقم البند	الموضوع وبيانه برقم البند
تقسيم الغزالي لكتابه وتقسيمنا	ص ٢ الالهراء
للبحث ب ١٥ ص ٣٨ و ٣٩	ص ٣ المقدمه
معاني القلب والنفس والروح	ص ٤ - ٣٧ العلم : العلم غذاء
١٦ ، جنود القلب وأمثلته مع	القلب ١ ، الشواهد العقلية
جنوده الباطنة ١٧ و ١٨ ، أسباب	لفضله ٢ ، تقسيمه الى علم معامله
خلو القلب عن العلوم ١٩ ،	وعلم مكشفة ٣ ، تقسيمه الى
مراتب الايمان ٢٠	شرعى وغير شرعى ٤ - ٦ ،
ص ٤٥ - ٢٨٠ الباب الاول	واجبات المتعلم ٧ ، مثال التعاون
(ما بينك وبين الله) : العلم بالله	في المناظرة ٩ ، واجبات المعلم
وطرق معرفته ٢١ - ٢٤ ، معنى	٨ - ١٤ (ضربنا مثلاً لاصلة بين
كلمتى الشهادة وصفات الله	المعلم والمتعلم في دور التعليم المصرية
والفرق بين الاسلام والايمان	ب ٨ ص ١٨ و ١٩)
٢٥ و ٢٦ ، مراتب التوحيد	ص ٣٨ - ٤٤ تقسيم البحث وتحريره :

الموضوع وبيانه برقم البند	الموضوع وبيانه برقم البند
محاسبة النفس ومراقبة الله	٢٧، التوكل على الله ومعناه
٥٨-٥٩، معنى النية ٥٩-٦١،	ودرجات قوته ٢٨ - ٣٠،
الأخلاص والصدق وشوب	الطهارة ٣١، الصلاة وحضور
الرياء ٦٢-٦٤، معنى الفقر	القلب فيها ٣٢-٣٤، الزكاة
والغنى وحقيقة الزهد وواجبات	وواجبات أخذها ومخرجها
الفقر ٦٥-٦٧، حقيقة الصبر	٣٥، صدقة التطوع ٣٧،
٦٨، شكر الله وكيف يجب	الصوم ٣٨، الحج ٣٩، تلاوة
أن يكون ٦٩ و٧٠، مراقبة الله	القرآن وأعمال الباطن فيها ٤٠،
في اللسان ٧١، مراقبة الله في	ذكر الله ودعاؤه وكيف يكون
الأكل والشرب ٧٢، الصفة	٤١-٤٣ (رأينا في معنى الذكر
الاجتماعية للأكل ٧٣، مراقبة	٤٣ ص ١٠١-١٠٣)، أسباب
الله في النكاح ٧٤، مراقبة الله	الحب عموما ومعنى حب الله
في التربية ٧٥، مراقبة الله في	ولذة معرفته والشوق اليه
المعاملات المادية مع الناس ٧٦-	والانس به ٤٤-٥٣، الرضى
٨٢، مراقبة الله في العجب	بقضاء الله ٥٤-٥٥، معنى

الموضوع وبيانه برقم البند	الموضوع وبيانه برقم البند
به الصغيرة ١٠٨ ، شروط صحة	٨٣ و ٨٤ ، مراقبة الله في الحسد
التوبة ١٠٩ ، مابه تمنحى ظلمة	٨٥ و ٨٦ ، مراقبة الله في الكبرياء
المعصية ١١٠ ، طبقات التائبين	٨٧ و ٨٨ ، مراقبة الله في الالفة
١١١ ، سبب الذنوب وعلاجها	والصحية ٨٩ - ٩٠ (رأينا في
١١٢ ، مراقبة الله في الرجاء	معاملة غير المسلمين ب ٩٠ ص
والخوف واقسام المخاوف ونوعا	٢٠٦ - ٢١١) ، مراقبة الله في
الخوف وسوء الخاتمة ١١٣ -	السمع والوجد ٩١ - ٩٣ ،
١١٨ ، معنى الفكر ومجاريه في	مراقبة الله في الجاه ٩٤ ، أسباب
خاق الله ١١٩ - ١٢٢ ، ذكر	المدح وكراهة الذم ٩٥ - ٩٧ ،
الموت وألمه ومعناه ١٢٣ -	مراقبة الله في الاخلاص وعدم
١٢٥ ، ذكر الجنة ١٢٦	الرياء ٩٨ - ١٠١ ، فضيلة ستر
ص ٢٨١ - ٣٢٨ : الباب الثاني	المعاصي ١٠٢ ، هل يترك العمل
(ما بينك وبين الناس) : فوائد	خوف الرياء ١٠٣ ، مراقبة
كل من المخالطة والعزلة ومقياس	الله في التوبة ١٠٤ - ١٠٦ ،
الحكم بينهما ١٢٧ - ١٢٩ ، آفات	الصغائر والكبائر ١٠٧ ، ما تكبر

الموضوع وبيانه برقم البند	الموضوع وبيانه برقم البند
(رأينا في رأى الغزالي في العشرة	الاسنان من فحش وسب وبذاءة
الزوجية ب ١٤٤ ص ٣١٨-٣٢٣)	ولعن ومزاح وافشاء سر
حقوق الاخوة والصحية ١٤٥ و	وكاذب وعد والكذب في القول
١٤٦ (رأينا في حقوق الاخوة	واليمين والغيبة والسماية وكون
التي رأها الغزالي ب ١٤٦ ص ٣٢٨	الانسان ذا لسانين والمدح ١٣٠
ص ٣٢٩ - ٣٦١ الباب الثالث :	الغضب وأقسام الناس فيه ١٣١
(ما بينك وبين نفسك) ، معنى	والقدر الذي يجوز التشفي به من
حسن الخلق ١٤٧ ، قبول	الكلام ١٣٢ ، الكبر وعلاماته
الاخلاق للتغير ١٤٨ ، سبب	ومعالجته ١٣٣ و ١٣٤ ، الحقد
حسن الخلق ١٤٩ ، تشبيه	وتتأجه ١٣٥ ، الحسد ومراتبه
مرض الاخلاق بمرض البدن	واسبابه ١٣٦ - ١٣٨ ، حقوق
١٥٠ ، أمثله لرياضة النفس ١٥١ و	الناس عموما ١٣٩ ، واجبات
١٥٢ ، واجب مريض النفس	الاكل في اجتماع أو مشاركة ١٤٠ ،
١٥٣ ، مانواخذ به وبمانعي	آداب تقديم الطعام الى الزائرين
منه ١٥٤ ، الخوف أفضل أم	١٤١ ، آداب الضيافة ١٤٢ ، آداب
الرجاء ١٥٥ ، خاتمة البحث ١٥٦	المعاشرة الزوجية ١٤٣ و ١٤٤

٣٦٦

الغلطات المطبعية

وقعت بعض غلطات مطبعية قليلة ظاهرة سنذكر صواب أهمها

ص	ص	الصواب	ص	الصواب
٣	٧٢	صحبه	٣	بالتميز
٥		... انه هو -	٦	حركاته
٧	٧٥	ينقسم	١٥	قدر
٧	٨٠	الغرض	٨	الغزالي
٨	٨٣	الطب	٩	صلاته
٢		بشرعية	١١	مريد
١٢		يأتي	١٣	تطهير
٢١	٨٤	الحب الجرد .. المقصود	١	قلوب
٤٢	٩١	الاستعانة	٦	وليخش
٤	١٠١	يقينا	٩	الله
٤٤	١٠٢	ويرى	١٣	خيرا
٥١	١٠٤	لا يئمل	٤	اذ لا يجب
٦٠	١١٥	و « من يحيي	٨	الرؤية
٦١		يزيد	١٤	بكدورات
٦٤	١١٦	ينكشف	١٣	والذين
٦٧	١١٩	المنزلتين	٢	وبني
١٠	١٢٠	المعنى	٩	الذنب

٣٦٧

الصواب	س	حس	الصواب	س	حس
طاطاته	٨	٢٥٦	يكره من وجه	١١	١٢٥
الشك	١٥	٢٥٧	لطابه	١٥	١٥١
ومن	١	٢٥٩	أنعم	٨	١٥٦
تعرض	٨	٢٦١	مصبيه	٧	١٦٤
الخليط	٧	٢٨٤	قل شاقة	٨	١٦٧
غيره	١٠	٢٩٨	تخذف كله	١٤	١٧١
الرجل	١	٣٠٧	« من »		
ليفهما	١٥	٣٢٢	يختم	١٦	
			إنه يغالي	١١	١٧٢
			زنا العين	٦	١٧٥
			بعض	١٤	١٧٩
			العاقدين	٧	١٨٢
			ان كان	٩	١٩٠
			فيها	١٣	٢١٠
			ولكن كونه	١٢	٢٢١
			الوجه	١	٢٣١
			ويغنى ...	١٠	٢٣٥
			ولا يستغزه		
			تتلاقى	١٢	٢٣٧

مؤلفات محمود علي قراءة المحامى

- (١) مملكة الجمال : ٣ أجزاء (٦٤ ص ، ١٠٤ ، ٩٠) في
سنة ١٩٢٥ م ٢٦٤ ، ٢٧٠ (١٥)
- (٢) مملكة الجمال والحب : (١٦٠ ص) في سنة ١٩٢٨ م (٥)
- (٣) مناجاة الجمال ومعاني الحب : (١٦٤ ص) في سنة
١٩٢٩ م (٣)
- (٤) المبادئ الكلية في الشريعة الإسلامية : (١٨٤ ص)
في سنة ١٩٣٠ م (٢٠)
- (٥) التريخ القانوني : (١٦٤ ص) في سبتمبر سنة ١٩٣١ (٥)
- (٦) محاضرة رعاية الاصلح تقريراً عملياً والدمثل بالبرلمان
والطاهر في تطبيق أعلام الشريعة الإسلامية في الحياة الزوجية :
(٥٩ ص) في نوفمبر سنة ١٩٣١ (١)
- (٧) الروح الجامعية في كلية الحقوق كاهن وكما يجب أن تكون :
(١٣٣ ص) سنة ١٩٣٢ (١)
- (٨) في الوقف : (٣٣٨ ص) في سنة ١٩٣٤ (٥)

تطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد علي بمصر

